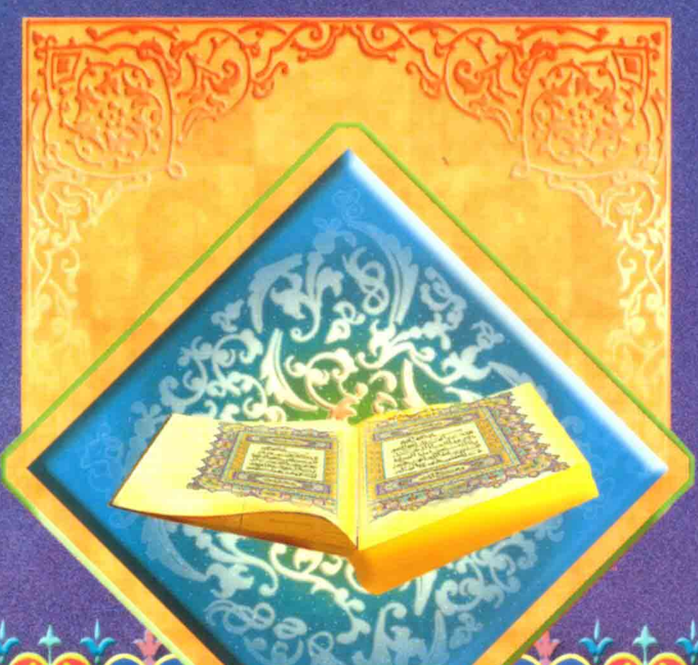
سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

شهر رمضان

رحلة الإنسان إلى الله

شرح دعاء دخول ووداع شهر رمضان
للإمام زين العابدين (ع)



دار الملاك

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
حارة حريك - قرب كلية الهندسة - هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - فاكس: ٠١/٤٥٠٧٦٩

مقدمــة

مع إطلالة شهر رمضان المبارك يسرُّنا أن نضع بين أيدي القرّاء الكرام كتاب شرح (دعاء دخول ووداع شهر رمضان) الوارد في الصحيفة السجاديّة للامام زين العابدين(ع) والذي قام بشرحه سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله(دام ظله الشريف) في كتابه (آفاق الروح) والذي جاء آيةً في الابداع حيث يرسم سماحته فيه للمسلم المنهج الإسلامي، لعبادة الدعاء بأسلوب أدبيّ رفيع وذوق اسلامي أصيل.. سائلين المولى التوفيق والتسديد إنّه سميعٌ مجيب.

المركز الاسلامي الثقافي

١٨شعبان ١٤٢٣هـ

٢٥ تشرين أول ٢٠٠٢ م

دعــــاء
دخــول شــهر رمضـــان

«الحَـمْـدُ للَّه الَّذي هَدَانا لِحَـمْـدِه وجَـعَلَنـا مِنْ أهْلِه، لِنَكُونَ لإِحْسَانه منَ الشّـاكِرِين، وَلِيَجْزِيَنا على ذَلِكَ جَزَاءَ المُحْسِنِين، وَالحَمْدُ للَّه الَّذي حَبَانا بِدِينِه، واخْتَصَّنا بملّته، وسَبَّلَنا في سُبُلِ إحسانِه، لِنَسْلُكَها بمنِّه إلى رضوانِه، حَمْداً يَتَقَبَّلُهُ منّا وَيَرْضَى بِهِ عنّا.

والحَمْدُ للَّه الَّذي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ، شَهْرَ رَمَضانَ، شَهْرَ الصِّيامِ، وشَهْرَ الإِسْلام، وَشَهرَ الطَّهُور وَشَهْرَ التَّمْحِيص، وَشَهْرَ القِيَام، الَّذي أُنْزِلَ فيه القرآنُ هُدَىً للنَّاسِ وَبَيِّنات مِنَ الهُدَى وَالفُرقان، فأبانَ فضيلَتَهُ على سائِر الشُّهورِ بِمَا جعلَ له من الحُرُماتِ الموفورةِ والفَضائِل المشهورَةِ، فحرَّم فيه ما أحلَّ في غيرِه إعْظَاماً، وَحَجَرَ فيه المطاعِمَ والمشارِبَ إكراماً، وجَعَلَ لهُ وَقتاً بيِّناً لا يُجيزُ جلَّ وعزَّ أن يُقدَّم قبلَهُ وَلا يَقبلُ أن يُؤَخَّرَ عنه...

ثمّ فضَّلَ ليلةً واحدةً من لَيَالِيه على لَيالِي ألْفِ شَهْرٍ وسَمَّاها ليلةَ القَدرِ تَنَزَّلُ الرُّوحُ فيها بإذْنِ ربِّهِم مِنْ كُلِّ أمر، سلامٌ دائمُ البَرَكَةِ حتّى طُلُوعِ الفَجْرِ على مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ بِمَا أحْكَمَ من قَضائِه.

اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِه، وألْهِمْنا مَعْرِفَةَ فَضْلِه وإجلالَ حُرمَتِهِ والتَّحفُّظَ ممَّا حَظَرْتَ فيه، وأعِنَّا على صيامِه بكفٍّ الجوارِحِ واستعمالِها بِمَا يرضيكَ، حتى لا نُصغيَ بأسْماعِنَا إلى لغوٍ، ولا نُسرعَ بأبْصارِنا إلى لهوٍ، وحتّى لا نَبْسُطَ أيدِيَنا إلى مَحظُورٍ، ولا نخْطُوَ بِأقدامِنا إلى مَحْجُورٍ، وحتّى لا تَعيَ بُطونُنا إلاَّ ما أَحْلَلْتَ، ولا نَنْطِقَ بِألسِنَتِنا إلاَّ بمَا مثَّلتَ، ولا نَتكلّفَ إلاَّ ما يُدني من ثوابِك، ولا نتعاطى إلاَّ الَّذِي يَقي مِنْ عِقابِك، ثُمَّ خلِّصْ ذَلكَ كلَّه مِنْ رِياء المرائين، وَسُمْعَةِ المُسمِعِين، لا نُشْرِكُ فيه أحداً دونَك، ولا نبتغي به مُراداً سواك...

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمَّد، وقِفْنا فيه على مواقيتِ الصَّلَوَاتِ الخمسِ، بِحُدُودِها التي حدَّدْتَ، وفروضِها التي فرضْتَ، ووظائفِها التي وَظَّفْت، وَأوْقَاتِهَا التي وَقَّت، وأنْزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ المُصيبِينَ لِمَنَازِلِهَا الحَافِظِينَ لأركانِها، المؤدّينَ لَها في أوقاتِها، على ما سَنَّهُ عبدُكَ ورَسولُكَ صلواتُكَ عليه وآلِه، في رُكُوعِها وسُجودِها وجميعِ فواضِلِها، على أتمِّ الطَّهورِ وأسبَغِهِ، وأبْيَنِ الخشوعِ وأبلغِه..

ووفّقنا لأن نصلَ أرْحَامَنا بِالبرِّ والصِّلَة، وأن نتعاهدَ جيرانَنا بالإفضالِ والعَطِيَّة، وأن نخلِّصَ أموالَنا من التَّبِعات، وأن نطهِّرَها بإخراجِ الزكوات، وأن نراجعَ مَنْ هاجَرَنا، وأن نُنْصِفَ مَن ظَلَمَنَا، وأن نُسالِمَ مَنْ عَادَانا، حاشَا مَنْ عُودِيَ فيكَ ولك، فإنَّه العدوُّ الَّذِي لا نُواليه والحزبُ الذي لا نُصافيه، وأن نتقرّبَ إليك

فيه منَ الأعمالِ الزاكيةِ بما تُطهِّرُنا فيه من الذُّنوب، وتَعْصِمُنا فيه مما نستأنِفُ من العيوب، حتى لا يورِدَ عليك أحدٌ من ملائكتكَ إلاَّ دونَ ما نوردُ من أبوابِ الطاعةِ لك، وأنواعِ القُربةِ إليك..

اللهمَّ إنِّي أسألُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْر، وبِحَقِّ مَنْ تعبَّدَ لَكَ فيه مِنَ ابتدائِهِ إلى وقتِ فنائه، من مَلَكٍ قرَّبتَه أو نبيٍّ أرسلْتَه أو عبدٍ صالحٍ اختصَصْتَه، أن تُصلِّيَ على محمّدٍ وآلِه، وَأهِّلْنا فيه لما وعدتَ فيهِ أولياءَك من كَرامتِك، وأوجِبْ لنا فيه ما أوْجَبْتَ لأهلِ المبالغةِ في طاعَتِك، واجعَلْنا في نَظْمِ مَنِ استحقَّ الرَّفيعَ الأعْلَى بِرَحمَتِك..

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّد، وَجَنِّبْنا الإلحادَ في توحيدك، والتقصيرَ في تمجيدِك، والشكَّ في دينك، والعمى عن سبيلِك، والإغفالَ لحرمتِك، والانخداعَ لعدوِّكَ الشيْطانِ الرَّجيم..

اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وآلِه، وإذا كان لك في كلِّ ليلةٍ من لَيالي شهرِنا هذا رِقابٌ يعتِقُها ويهَبُها صَفْحُك، فاجْعَلْ رقابَنا من تلكَ الرِّقاب، واجْعَلْنا لشهرِنا من خيرِ أهلٍ وأصحاب..

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِه، وامْحَقْ ذُنُوبَنا معَ امِّحاقِ هلاله، واسلَخْ عنَّا تبِعاتِنا معَ انسلاخِ أيّامِه، حتّى ينقضيَ عنَّا وقد صفّيتَنا فيه من الخطيئات، وأخلصْتَنا فيه من السيِّئات..

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِه، وإن مِلْنا فيهِ فعدِّلنا، وإن زِغْنا فيهِ فقوِّمنا، وإن اشتملَ علينا عدوُّك الشيطانُ فاستنقذْنا منه..

اللهمَّ اشْحَنْهُ بِعِبادَتِنا إيّاك، وزيِّن أوقاتَهُ بطاعتِنا لك، وأعِنَّا في نهارِهِ على صيامِه، وفي ليلِه على الصلاةِ والتضرُّعِ إليكَ والخشوعِ لكَ والذِّلَّةِ بينَ يَدَيك، حتى لا يشهدَ نهارُهُ علينا بغفلة، ولا ليلُهُ بتفريط.

اللهمَّ واجعلْنَا في سائرِ الشهورِ والأيامِ كذلكَ ما عمَّرْتَنا..

واجعَلْنَا من عِبادِكَ الصالحِينَ الَّذِينَ يرِثُونَ الفِرْدَوسَ هُم فيها خالِدُون، والَّذِينَ يُؤْتونَ ما آتوا وقلوبُهم وجِلةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعون، ومِنَ الَّذِينَ يسارعونَ في الخيراتِ وهم لها سابقون..

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِه، في كلِّ وقتٍ وكلِّ أوان، وعلى كلِّ حال، عددَ ما صلَّيتَ على مَن صلَّيتَ عليه، وأضعافَ ذلكَ كلِّه بالأضعافِ التي لا يُحصيها غيرُك، إنَّكَ فعَّالٌ لما تريد.

الحَمْدُ للَّه الَّذي هَدَانا لِحَمْدِه، وجَعَلَنا من أهْله، لِنَكونَ لإحْسَانه منَ الشّاكِرِين، وَلِيَجْزِيَنا عَلى ذَلكَ جَزاءَ المُحْسنين، وَالحمْدُ للَّه الَّذي حَبَانا بدِينه، واخْتَصَّنا بملّتِه، وسَبَّلَنا في سُبُلِ إحسانِه، لِنَسْلُكَها بمنِّهِ إلى رضوانِه، حَمْداً يتَقَبَّلُهُ منّا ويرضى بهِ عنّا».

حمد دائم على نِعَمٍ لا تنقطع

إنَّها بداية التطلّع المنفتح على حَمْدِ اللَّه الذي لم يكتشفه الإنسانُ إلاَّ من خلال هداية اللَّه الذي كشف له مواقعَ الحمد في ذاته سبحانه في مواقع عظمته وآفاق نعمه، بما جهّزه به من وسائل الحمد له في سمعه وبصره وعقله... ووفّقه له ليكون من أهل الحمد الذين يشعرون شعوراً عميقاً بالحاجة إلى معرفة اللَّه في ما توحي به من حركة الجانب الروحيّ والفكريّ والعمليّ في شخصيّة الإنسان... ليؤدّي ذلك إلى اكتشاف إحسانه في وجوده من حيث المبدأ والتفاصيل، ولينتهي به الأمر إلى شكره على ذلك، الذي يعبّر عن معنى الإحسان في علاقة العبد بربه من الناحية العمليّة، مما يستحقّ عليه الثواب من اللَّه الذي يجزي المحسنين بإحسانه في ما أعدّه لهم من رضوانه.

وينطلق الحمدُ الذي يختزن معنى الشكر، عندما يتطلّع هذا الإنسان إلى الدين الذي يضمن له سعادة الدنيا والآخرة، مما أنزله اللَّه على رسوله من كتابه في ما اشتمل عليه من عقيدة وشريعةٍ ومفاهيم للحياة ومناهج للعمل وللتفكير... فيحمد اللَّه على ما حباه من ذلك كلّه، وعلى ما اختصه

به من ملّته... وهذا هو الأسلوب التربويّ الذي يُوحي للإنسان المؤمن بقيمة الدين في عقيدته وشريعته، مما يجعله منفتحاً على حمد اللَّه من خلاله، ليكون ذلك أساساً للتفكير به وللاهتمام بحركة المسؤوليّة فيه، وللإيحاء الحركيّ بعلاقته بقضيّة المصير الأبدي، خلافاً للمعروف المألوف لدى الناس من تأكيد العناصر الماديّة في مسألة الحمد والشكر.

ثم يمتدّ الحمد، ليُطلّ على السُبُل التي فتحها اللَّه للإنسان ليتحرّك في خطوطها، فيشعر بقيمتها في عناوين الإحسان الإلهي الذي يقوده إلى التحرّك نحو رضوانه، وهو غاية كلِّ مؤمن في تطلّعاته الروحيّة وفي خطواته العمليّة... ولا بدّ أن يشتمل هذا الحمد على عمق الإخلاص، وروحيّة الإيمان، بالمستوى الذي يتقبّله اللَّه من عباده، ويمنحهم من خلاله درجة الرضى التي تتيح لهم القرب منه في رحاب جنّته.

وهكذا نرى في هذا الفصل عدّة مفردات مهمّة تتصل بالجانب الروحيّ والعمليّ للإنسان... الحمد، الشكر، الإحسان الإلهي، الإحسان الإنساني، الدين الملّة، سُبُل الإحسان، مَنُّ اللَّه، رضوانُه، حيث يطوف الإنسان معها في رحاب الإيمان، فتنفتح به على كثير من مجالات الفكر والمعرفة.

والحمدُ للَّهِ الَّذي جَعَلَ مِنْ تِلكَ السُّبُلِ شَهرَهُ، شَهْرَ رَمَضان، شَهْرَ الصِّيام، وَشَهْرَ الإسْلام، وشَهْرَ التَّمحِيص، وَشَهْرَ القِيام، الَّذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدَىً للنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرقَان.

شهر رمضان سبيل اللّه

وإذا كان اللّه شقّ للناس سُبُل الإحسان التي تفتح حياتهم على الخير كلّه، فإنَّ هذه السُبُل لا تختصّ بالساحات الممتدّة في رحاب المكان، حيث الأرض التي تمتدّ بالإنسان لتصل به إلى غاياته في ما يريد أن يصل به إلى مواقع أغراضه وحاجاته، بل تشمل ساحات الزمن - إن صحّ أن يكون للزمن ساحات - حيث ينفتح الإنسان على كلِّ ما في آنائه من ساعاته وأيامه ولياليه وشهوره، لتحتضن حركتَه في أجواء الخير كلِّه، في ما تمتلىء به ساحة الزمن من أفعال الإنسان وأقواله، لتكون حركة الزمن في مسؤوليّته طريقه إلى اللّه، كما تكون حركته في المكان طريقه إلى اللّه في أجواء المسؤوليّة الشرعيّة.

وهكذا كان شهرُ رمضان سبيلَ اللّه الذي أراد للإنسان أن يبدأ رحلته إليه في ما أثاره فيه من أجواء، أو شرّع فيه من شرائع، أو حرّك فيه من أوضاع، وقد منحه اللّه شرفَ الانتماء إليه، ليعيش الناسُ الشعورَ بالمضمون الروحيّ الذي يجعل الزمن إلهيّاً يحمل في داخله سموّ المعنى الإلهي في ما يختزنه من رحمة وعافية ومغفرة ولطف ورضوان، وفي ما يمكن للعباد أن يحصلوا منه على المزيد من ذلك كلِّه...

وليس معنى ذلك الاختصاص بالانتماء، أنّ الشهور الأخرى تفقد هذه الصفة في طبيعتها الزمنيّة وفي الألطاف الإلهيّة المحيطة بها، لأنَّ الزمن كلَّه خَلْقُ اللّه الذي جعله مفتوحاً على الحياة كلِّها، من أجل أن ينال فيه رضاه من خلال حركته في مواقع طاعته في ما كلّفه به من الأعمال التي تصل به إلى مواقع القُرْب منه، لأنَّ المسؤوليّة لا تَختصُّ بزمن معينٍ، ففي كلّ لحظةٍ زمنيّةٍ، مهما صَغُرت، تكليفٌ شرعي يتوجّه فيه اللّه للإنسان بأن يقف فيه عند حدوده، ولكن معنى هذا الاختصاص - في ما يبدو - هو الانفتاح الكبير

للَّه فيه على عباده بفيوضات رحمته، بما لم يجعله اللَّه لزمن آخر في ما هي القيمة، وفي ما هو المستوى، في الكميّة والنوعيّة... وهذا هو ما تعبّر عنه الكلمات المأثورة عن رسول اللَّه محمّد (ص) في ما رُوي عنه من خطبته التي استقبل بها شهر رمضان، في آخر جمعة من شعبان، فقد جاء فيها:

«أيُّها الناس، قد أقبلَ عليكم شهرُ اللَّه بالرَّحمةِ والبركةِ والمغفرة، شهرٌ هو عند اللَّه أفضلُ الشهور، وأيّامُه أفضلُ الأيام، ولياليهِ أفضلُ الليالي، وساعاتُه أفضلُ الساعات، قد دُعيتم فيه إلى ضيافةِ اللَّه، وجُعِلْتُم فيهِ من أهلِ كرامةِ اللَّه، أنفاسُكم فيه تسبيح، ونومُكم فيه عبادة، وعملُكم فيه مقبول، ودعاؤُكم فيه مُستجاب، فاسألوا اللَّه بنيَّاتٍ صادقةٍ وقلوبٍ طاهرة، أن يوفِّقَكُم لصيامِهِ وتلاوةِ كتابه، فإنَّ الشقيَّ من حُرِمَ غُفرانَ اللَّهِ في هذا الشهرِ العظيم».

فنحن نلاحظ في هذه الكلمات احتضانَ اللَّه للإنسان برحمته وبركتهِ ومغفرته في هذا الشهر، فقد حوّل فيه نومَه إلى عبادة، وأنفاسَه إلى تسبيح، وتقبّل فيه عملَه، واستجاب فيه دعاءَه بالدرجة التي لم يمنحها له في أيّ شهر آخر.

إنّه الإحساسُ الإنسانيّ الروحيّ الحميم بالجوّ الرمضاني الذي يدخل إليه الإنسان ضيفاً مكرّماً يتغذّى بالرحمة والبركة والمغفرة في أجواء العطف واللُّطف والحنان بشكل مميّز حميم... حيث يعيش الإحساس بإنسانيّته المنطلقة من روح اللَّه عندما نفخ فيه الروح فأعطاه شيئاً من سموّها الذي يتصل باللَّه، وينفتح عليه في محبّةٍ واحتضان، حتى يحسّ في هذا الاندماج الروحيّ بالعلاقة التي ينسى فيها عبوديته، وهو في قمة الخشوع في ممارسته لها...

شهرُ الصيام

والعنوان الثاني لشهر رمضان هو «شهر الصيام»، الذي أراد اللَّه فيه للإنسان أن يقوم بأداء هذه الفريضة، من أجل أن يؤكّد له إنسانيّته في مواقع السموّ عن الأجواء الماديّة التي تشدّه إلى الأسفل، لأنَّ المطلوب فيه أن يرتفع إلى الأعلى، بأن يكون روحاً يحرّكه الجسد في روحيّته لينال رضى اللَّه، وليعيش القُرْب من اللَّه حتى يعيش المعاني الكبيرة الصافية المشرقة من خلاله، لأنَّه كلّما اقترب من اللَّه أكثر، في أجواءِ شفافيّة الروح وطهارة الجسد، اقترب من الانفتاح على المسؤوليّة الكبيرة التي تدعوه إلى أن يحمل في وعيه معنى الخلافة عن اللَّه في إدارة شؤون الحياة من حوله.

إنَّ قضية الصيام هي أن تخفِّف ثقلَ الضغط الجسديّ على مواقع الإرادة في شخصيّتك... أن لا تُثقل الرغبةُ حركتَكَ نحو أهدافك... أن لا يسحقك الحرمانُ الذي تعيشه في بعض ساحات التحدّي لتسقط أمامه، لأنَّ إحساسك بالجوع الغذائيّ أو الجنسيّ وبالظمأ المُحْرِق للحاجة المخزونة في أعماقك، قد يُسقطك أمام الآخرين فتفقد طُهْرَك وتبتعد عن استقامتك، وتموت قضاياك، وتنسحق إنسانيتك.

إنَّ قضية الصيام، هي أن تكون إنسانَ اللَّه، بدلاً من أن تكون إنسانَ الشيطان... أن تعرف كيف تعيش سكينة الروح وطُمأنينة القلب، بدلاً من أن تحترق بنار الشهوة... وسُعَار الأطماع.

أن تشفي روحك حتى تطير إلى اللَّه، وأن يخفّ جسدك حتى يحلّق في آفاق المعنى الكبير الذي يتحمّل مسؤوليّة الحياة كلّها، ولعلّ هذا هو الذي يفسّر الحديث القدسي: «**الصوم لي وأنا أُجزي به**»[1]...

---

(١) التهذيب، ج: ٤، باب: ١، ص: ١٥٢، رواية: ٣.

شهرُ الإسلام

والعنوان الثالث: «شهر الإسلام»؛ وقد فسّر البعض كلمة الإسلام بمعناها اللُّغوي، أي الطاعة والانقياد لكثرة الطاعات في هذا الشهر... ولكنَّ هناك تفسيراً آخر، وهو دين الإسلام، لكون افتراض صومه من خصائص هذه الأمة، فقد ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: «**إنَّ شهر رمضان لم يفرض اللَّه صيامه على أحد من الأمم قبلنا، وقيل له: فقول اللَّه عزّ وجلّ:** ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذينَ منْ قَبْلكُم﴾ (البقرة: ١٨٣). «**قال: إنما فرض اللَّه صيام شهر رمضانَ على الأنبياء دون الأمم، ففضّل به هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول اللَّه (ص) وعلى أمته**»[٢]. ورُوي عن النبيّ محمّد (ص) أنَّه قال: «**رمضان شهرُ أمتي**»، وقيل عن التشبيه في الآية إنَّه بلحاظ مطلق الصوم.

وقد نلاحظ على ذلك أنّ الظاهر من إضافة الشهر إلى الإسلام، أنَّ للشهر علاقة بالإسلام بمجمله، لا بلحاظ فريضةٍ من فرائض الإسلام المفروضة فيه، مما قد يوحي إلينا بأنّ ذلك مرتبطٌ بنزول القرآن فيه الذي يمثّل الوجه البارز للإسلام في عقيدته وشريعته، وبالحشد الروحيّ من الصيام والصلاة والدعاء وتلاوة القرآن، الذي أُريد له أن يقوم بدور كبير في إعداد الإنسان المسلم في هذا الشهر للسنة كلِّها، من خلال ما يمكن أن يحقّقه البرنامج الرمضاني من تعبئة فكريةٍ وروحيّةٍ تترك تأثيراتها على حركة الإسلام في الحياة كلّها في جميعٍ فصول السنة... الأمر الذي يجعل منه شهر الإسلام الذي يتحرّك فيه الإسلام بكل أبعاده، واللَّه العالم.

---

(٢) من لا يحضره الفقيه، ج: ٢، باب: ٢، ص: ٩٩، رواية: ١٨٤٤.

شهر الطّهور

والعنوان الرابع «شهر الطهور»، وذلك من خلال وسائل التطهّر الروحيّ الذي يبلغه الإنسان فيه، في نقاء الروح والفكر والقلب والحركة العمليّة من خلال الأجواء الطاهرة التي يعيش فيها الإنسان روحيّة التقوى وحركتها بين يدي اللّه، فيتخفّف من كلِّ قذارات المعاصي وأرجاس الانحراف، مما يوحي بأنَّ للطهارة موقعاً كبيراً في حسابات الإسلام، بحيث يريد للزمن في حركة الطاعات فيه أن يكون مدخلاً للحصول على مثل هذه الطهارة في حياة الإنسان، ليكون الإنسان الطاهر هو الهدف في التخطيط الإسلاميّ على مستوى التشريع والتطبيق.

شهرُ التمحيص

والعنوان الخامس: «شهر التمحيص»، وهو تخليص الشيء مما فيه من عيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ما في قُلوبِكُم﴾ (آل عمران: ١٥٤). ربما أُريد منه التطهّر والتزكية، وربما أُريد منه الابتلاء والاختبار، وقد يكون الثاني مقدمةً للأول... وفي ضوء هذا يكون الشهر المبارك مدخلاً للنفاذ إلى داخل الإنسان ليقتلع جذور الفساد فيه، ليحصل على خَلاَصِه الروحيّ من كلّ ذلك، أو يكون حركةً في الفكر والمراقبة والمحاسبة، في ما يحرّكه الإنسان من كلِّ النوازع الذاتيّة التي قد تطوف به في أجواء متنوعةٍ مما يُرهِق روحه أو يُثقل قلبه أو ينحرف به في سبل الضلال، ليعود الإنسان خفيفاً من تلك الأثقال، متحرّراً من كلِّ الأغلال، متوازناً في الخطّ المستقيم... وذلك في تلاوة كتاب اللّه الذي يجد فيه كلَّ مفردات الحقّ والخير، وفي الانفتاح على الدعاء الذي يَصِلُه باللّه من أقرب الطرق، وفي صلاته التي تعرج فيها روحُه إلى اللّه في رحلة الإيمان.

وهكذا يوحي هذا العنوان للشهر المبارك بأنَّ اللَّه لا يريد للإنسان أن يعيش الغفلة عن نفسه، فيترك للنوازع الخبيثة أن تسيطر عليها، بل لا بدّ له أن يلاحقها بالمحاسبة والمجاهدة، بكلِّ الوسائل الممكنة التي تصل بالإنسان إلى إخراج كل المشاعر والأفكار الخبيثة منها.

شهرُ القيام

والعنوان السادس هو: «شهر القيام»، والمراد به القيام للصلاة في الليل وللتهجّد فيه، في ما سنّه الإسلام في ليالي رمضان من ذلك كلّه، حتى ورد استحباب صلاة ألف ركعة في لياليه زيادة على النوافل المستحبّة، بحيث تتوزّع على ليالي الشهر في ترتيب معين... وهذا هو الذي جعل هذا الشهر مميّزاً من هذه الجهة بالطريقة التي يتحوّل فيها القيام إلى عنوان له... ليكون له الطابع العبادي التهجّديّ الذي يمنح التخطيط الروحيّ لبناء الشخصيّة الإسلامية فيه بُعْداً واسعاً متنوّعاً في ما تتمازج فيه العناصر العباديّة في الليل والنهار لتحقّق النتائج المطلوبة منه في أكثر من موقع.

ونلتقي في نهاية هذا الفصل بالفقرة التي تتحدّث عن نزول القرآن فيه ﴿الَّذي أُنْزِلَ فيه القُرآنُ هُدَىً للنَّاس وَبَيِّنَات منَ الهُدَى والفُرْقَان﴾ (البقرة: ١٨٥) ليكون هذا الحدث العظيم الذي انطلقت من خلاله حركة الإسلام الفكريّة في خطّ المنهج والشريعة والمفهوم... التي وَضَع الوحي القرآني قواعدَها وأصولَها، وحدّد مفرداتِها وأوضاعَها، عنواناً للقيمة الإسلامية لهذا الشهر، في ما يكتسب الزمن من قيمة كبيرة من خلال الأحداث الواقعة فيه... وقد أراد الإسلام أن يؤكّد ذلك، فدعا إلى تلاوة القرآن بشكل واسع في هذا الشهر، حتى جعل تلاوة كتاب اللَّه فيه مساوية لصيامه، كما جاء في الخطبة المروية عن رسول اللَّه في استقبال شهر

رمضان: «**فاسْألوا اللّه بِنيّاتٍ صادِقة وقُلُوبٍ طاهِرَة أن يُوَفِّقكُم لِصِيامِهِ وتِلاوَةِ كِتَابِهِ**».

وإذا كان القرآن قد نزل في هذا الشهر المبارك، فلا بدّ للناس من أن ينفتحوا عليه من خلال الهدى الذي تتضمنه آياته، ومن خلال البيّنات التي تثبّت للإنسان خطوط الهدى التي تدلُّ على مواقع النجاة، وتعرّفه كيف يميّز بين الحق والباطل في ما يتعرّف عليه من الفواصل التي تفصل بينهما، فلا بدّ أن تكون التلاوة في هذا الاتجاه. ولسنا هنا بصدد البحث في طبيعة نزول القرآن في هذا الشهر من حيث نزول بعضه فيه أو نزوله جُملةً في ما تحدّث به الباحثون، فلذلك مجال آخر.

> **فأبَانَ فضيلتَهُ على سائرِ الشهورِ بما جعلَ له من الحُرُماتِ الموفورةِ والفضائِل المشهورة، فحرَّم فيه ما أحلَّ في غيرِه إعظاماً، وحَجَرَ فيه المطاعمَ والمشاربَ إكراماً، وجَعَلَ له وقتاً بيّناً لا يجيزُ جلّ وعزّ أن يُقدَّمَ قبلَهُ ولا يقبلُ أن يُؤخَّرَ عنه...**

ميزةُ شهر رمضان

وهذه ميزة لشهر رمضان على سائر الشهور، فقد جعل اللّه له من الحُرُمات الكاملة التي توحي بقداسته في ما يلتزمه الناس من حدود اللّه فيه، ومن الفضائل المشهورة في ما جعل له من الخصائص الروحيّة والعمليّة، مما يوحي فيه بالخير والفضل الكبير على مستوى النتائج الكبيرة التي يبلغها العاملون فيه في علوّ الدرجة عند اللّه...

وهكذا حرّم اللَّه فيه المآكل والمشارب واللذّات التي لم يحرّمها في غيره، كإيحاءٍ بعظمته من خلال ما يستهدفه هذا التحريم من غايات عظيمة على مستوى مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، وكمظهر من مظاهر الإكرام له في ما أراد اللَّه للناس أن يتعبّدوا له بذلك، ليكون الالتزام بترك المطاعم والمشارب عبادةً يتقرّبون بها إليه، كما يتقرّبون بالعبادة إليه، وحدّد له وقتاً معيّناً، لا يتسع للتقديم وللتأخير في المساحات الزمنية الأخرى، لأنَّ اللَّه أراد للزمن العمليّ أن يخضع للنظام العام الذي يريده اللَّه للحياة في التزام الناس به وخضوعهم له، حتى يتعرّف الناس في علامات الزمن، علامات الطريق إلى اللَّه...

ثمَّ فضَّلَ ليلةً واحدةً من لياليه على ليالي ألفِ شهرٍ وسمّاها ليلةَ القدرِ تَنَزَّلُ الروحُ فيها بإذنِ ربِّهم من كلِّ أمر، سلامٌ دائمُ البركةِ حتى طلوعِ الفجرِ على مَن يشاءُ من عبادهِ بما أحْكَمَ من قضائهِ.

فضل ليلة القدر

وإذا كان اللَّه قد فضّل شهر رمضان على غيره من الشهور لحكمةٍ يعلمها في تنظيمه لعلاقة الإنسان بالزمن، فقد فضَّل اللَّه ليلةً من هذا الشهر على سائر لياليه، فجعل لها ميزةً كبيرةً تتصل بالنظام المنفتح على حياة الناس في التخطيط الإلهيّ لما يقضي لهم أو يقدّر لحركتهم في الحياة في أعمارهم وأرزاقهم وأوضاعهم العامة والخاصة، من حربٍ أو

سلمٍ، أو خصبٍ أو جدبٍ، أو موتٍ أو حياةٍ، أو أمنٍ أو خوفٍ، أو فقرٍ أو غنى... وهكذا كانت هذه الليلة موضعاً لحركة التقدير الإلهي، مما يمكن لنا أن نصطلح عليه ببداية السنة الإلهية التي يتحرّك فيها البرنامج التنفيذي للنظام التقديريّ لحركة الحياة والإنسان.

وقد أُريد للملائكة وللروح الذي اختلف الرأي في تحديد طبيعته، أن يكون لهم دورٌ في ذلك في ما أوكله اللّه إليهم من المهمّات المتنوّعة الخفيّة التي لم تُكشف لنا تفاصيلُها، كما أُريد التركيز على السلام الذي يحيط بأجواء هذه الليلة، في ما يُلقيه الملائكة والروح من السلام على من يشاء اللّه من عباده أو في ما يثيره من أجواء السلام الذي يخيّم على القلوب بالطُمأنينة والصفاء، ليعيش الناس معها تجربة الروح الخالية من العناصر السلبيّة التي توحي بالعداوة والبغضاء عندما يتفرّغون لعبادة اللّه في دعائهم وابتهالهم وصلاتهم، فيتحوّل الإنسان من شخصٍ يعيش نوازع الأنانيّة في ذاته، إلى شخصٍ يعيش رحابة الإنسانيّة في حياته، كما يتطلّع إلى آفاق الروح التي تنفتح به على كلِّ الناس من حوله عندما يتحسّس موقعه منهم في دائرة العبودية للّه، ليطلع الفجر عليه، في يومٍ جديد، من أجل البدء بحياةٍ جديدةٍ خاليةٍ من التخطيط السلبيّ للعلاقات بين الناس، مليئةٍ بالتخطيط الإيجابي في تلك الدائرة، ولينطلق مع اللّه في قناعةٍ يقينيّةٍ بقضاء اللّه وقدره، وفي رضى نفسي يُطمئِنُه بأنّ اللّه لا يريد له إلاّ الخير في ما قَسمَه له من الرزق ومن الموقع في الحياة، فلا ينفذ إليه الشكُّ في كلِّ ذلك... وبهذا تتأكَّد علاقة المخلوق بخالقه في نطاق الإيمان المنفتح على الثقة المطلقة به، الأمر الذي يتحوّل إلى عنصر من عناصر الثبات الفكريّ والروحيّ البعيد عن أيّة حالة من حالات الاهتزاز...

وهذه هي فائدة الأجواء الروحيّة التي يستغرق فيها الإنسان المؤمن في ليلة القدر ليستفيد من مضمونها المنفتح على الكون والإنسان.

«اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآله، وألهمنا معرفةَ فضله وإجلالَ حُرمَتِه والتحفُّظَ ممّا حظرْتَ فيه، وأعِنّا على صِيَامِهِ بكفِّ الجوارح واستعمالها بما يُرضيك، حتى لا نصغيَ بأسماعنا إلى لغوٍ، ولا نسرعَ بأبصارِنا إلى لَهْوٍ، وحتى لا نبسطَ أيدِيَنا إلى محظورٍ، ولا نخطوَ بأقدامِنا إلى محْجُورٍ، وحتى لا تعيَ بطونُنا إلاَّ ما أحْلَلْتَ، ولا نَنْطِقَ بألسنَتِنا إلاَّ بمَا مثَّلْتَ، ولا نتكلَّفَ إلاَّ ما يُدني من ثوابِك، ولا نتعاطى إلاَّ الذي يَقي من عقابِك، ثمَّ خلِّصْ ذلكَ كلَّه مِن رِياءِ المرائين، وسُمعةِ المُسمِعين، لا نُشركُ فيه أحداً دونَك، ولا نبتغي به مراداً سواك...

بين المعنى المادّي للصوم والمعنى الروحي

وهذا حديثٌ عن عمق الترابط بين الصوم بمعناه الماديّ الشرعيّ الذي يتمثّل في ترك بعض الأشياء الخاصّة من الطعام والشراب والجنس وما أشبه ذلك، وبين الصوم بمعناه الروحيّ الأخلاقيّ الذي يمتدّ ليشمل كلَّ المضمون المنفتح على مفهوم التقوى بكل سَعَتِه، مما يجعل الوسيلة في الصوم الفقهيّ مرتبطةً بالهدف في الصوم الإسلامي بكل سَعَةِ التشريع في دائرته العمليّة.

فالمطلوب أوّلاً ـ من وحي هذه الفقرات ـ أن يُلهمنا اللّه معرفَة فضله

وإجلال حرمته... ولكن، هل هي المعرفة الفكريّة والإجلال الاحتفاليّ، أم هي المعرفة بالخطّ العمليّ الذي يتحوّل إلى حركةٍ في بناء الشخصيّة؟... لأنَّ الزمن ليس شيئاً حيّاً ينفذ الإنسان إلى داخله ليتعرّف خصائصه الذاتيّة، بل هو شيءٌ في حركة الوجود التي يمنحها الإنسان معنىً في الشكل والمضمون ليعطيه بعض الملامح الجميلة أو الخبيثة من نشاطه السلبيّ أو الإيجابيّ، في ما يأخذ به من وحي الرسالات، أو في ما ينطلق به في وعي الفكرة في الذات، ولذلك فلا معنى للمعرفة إلاَّ من خلال المضمون الإنسانيّ الحركيّ في الزمن الذي لا بدّ أن يتعرّفه الإنسان في مسؤوليّة الزمن في ضرورة تجسيده في شيء من ذلك، وعلى ضوء ذلك نفهم أنّ الإجلال ليس شيئاً يتحرّك في الطَقْسٍ التقليديّ بل هو شيءٌ يتحرّك في عظمة الدور في داخل حركته...

وهكذا ينبغي للإنسان أن يعيش شهر رمضان في الدور، وفي المسؤولية، وفي فترة العمر المسؤول في رحلته إلى اللّه في داخل هذا الشهر، ليكون دخولُه إليه عن وعي يُلهمه معناه، ليعرف كيف يحتويه في الدائرة الإسلاميّة الحيّة المتحرّكة في كلِّ اتجاه للحياة من حوله.

والمطلوب ثانياً ـ من وحي هذا الدعاء ـ التحرّز عن التعدّي على حدود اللّه، في ما حرّم اللّه على عباده تجاوزه، من الأمور التي لا مصلحة فيها للحياة وللإنسان، مما أنذر اللّه عباده بالعقوبة على ممارستها، وهذا هو الذي يلخّص كل الخطوط التي يتحرّك فيها الإنسان في هذا الشهر في جانبها السلبيّ الذي يتمثّل في المحرّمات، وفي جانبها الإيجابيّ الذي يتمثّل في الواجبات... وهذا هو الذي نتابع عناوينه في الفقرات الآتية، التي يرتفع فيها النداء من أعماق القلب المؤمن الخاشع الذي يخشى من السقوط في التجربة تحت تأثير ضغط المادة أو الغريزة أو البيئة أو نحو

ذلك مما قد ينحرف بالإنسان عن الخطّ المستقيم، فيبادر إلى طلب المعونة من اللّه، ليتوازن الإنسان في حركته، لتنطلق الإرادة من جانب، وتنزل عليه الألطاف الإلهيّة من جانب آخر.

وهذا ما تمثّله هذه الفقرة: «**وأعنّا على صِيامِهِ بكفِّ الجوَارِحِ عن مَعاصِيكَ واستعمالِها بمَا يُرْضِيك**»، فإنّها توحي بأنَّ الصوم يأخذ مضمونه الحقيقي في حياة الناس الإيمانيّة العباديّة المنفتحة على اللّه بالالتزام الحقيقي الذي لا يهتزّ في مواقع الاهتزاز الفكري والعملي، فلا تنفذ معصية اللّه إلى أعضاء الإنسان في قوله وفعله، بل تقف مع طاعة اللّه التي يتحرّك فيها الجسد بكلّ حركاته، ليكون الإنسان في ذلك إنسانَ اللّه، الذي ينتمي إليه ولا ينتمي إلى الشيطان، وليكون عبدَ اللّه الخاضع له في كلِّ أموره...

وهذا ما تعبّر عنه الفقرات التالية:

«**حتى لا نُصغيَ بأسماعنا إلى لَغْو**» وهو الكلام الذي لا يُعتدّ به، وهو الذي لا يَرِد عن رويّة وفكر، فقد يشتمل على ما لا يُرضي اللّه وما لا ينفع الناس، أو على ما يفسد حياتهم، أو ما يبتعد بهم عن الخطّ المستقيم في الفكر والمنهج والعمل... وهذا هو ما يريد الإسلام للإنسان أن يبتعد عنه ويرتفع بشخصيّته عن الأخذ به... وقد يكون الإصغاء إليه وسيلةً من وسائل الأُنس به والانجذاب إليه، مما قد يترك تأثيراً عميقاً في شخصيّة الإنسان حيث يتحوّل إلى شخص يمارس اللّغو وينطبع به.

«**ولا نُسرعَ بأبصارنا إلى لَهُو**» يجتذبُ العينَ فيسحرُها، ويأخذُ القلبَ فيملُكه، ويطبع حياة الإنسان بطابعه ليكون الإنسانَ اللاّهي البعيدَ عن اللّه الذي يستغرق في الصورة الحلوة هنا، واللمسة المُغرية هناك، والأوضاع المثيرة في موقع آخر، فيخلد إلى الأرض في زخارفها

ومغرياتها وشهواتها، فلا يرتفع إلى آفاق السموّ الروحيّ الباحثة عن اللَّه، ولا ينطلق إلى مواقع المسؤوليّة المنفتحة على مواقع رضاه، وبذلك يفقد توازنه، ويبتعد عن إنسانيّته، ويتحوّل إلى شخص عَبَثي في ما هو العبث اللاهي في الحياة.

«**وحتى لا نبسطَ أيدينا إلى محظور**»، لأنَّ اللَّه جعل لليدين دوراً في تحريك حياة الإنسان نحو القضايا التي تمثّل حاجاته في بناء جسده في ما يحتاجه من الغذاء والكساء ونحو ذلك، أو التي تمثّل حاجاته في بناء روحه، أو في رعاية حياة الناس من حوله في ما أحلّه اللَّه له من ذلك كلِّه... ولم يُرخّص له أن يستعملها في تناول الحرام، أو في إفساد حياة الناس أو حياته وتهديدها أو إرباكها في ما لا يرضى له به... وفي ضوء ذلك، لا بدَّ للإنسان من أن يفكّر بأن لا يحرّك يديه في الأمور المحظورة، على جميع المستويات، حتى لا تكونا أداتين لمعصية اللَّه، وبالتالي لهلاك الإنسان في مصيره المحتوم في عذاب جهنّم من خلال غضب اللَّه...

«**ولا نخطوَ بأقدامنا إلى محجور**»، فقد حجّر اللَّه علينا، من الوجهة الشرعيّة، أن نتحرّك في الساحات التي تتجمّع فيها الأوضاع المنفتحة على الفساد والإجرام والخيانة وغيرها من المعاصي، أو أن نأخذ بالوسائل التي تقودنا إلى ذلك، أو ننطلق إلى الأهداف التي لا يحبّها اللَّه لعباده، ولذلك ينبغي للإنسان أن يستغرق في التأمّل في خطواته في حركة رجليه، ليحدّد الطُرُقَ المحلّلة أو المحرّمة، وليعرف الغايات التي يبلُغُها في ما يبني له حياته ومصيره، أو في ما يهدم وجوده ونجاته.

«**وحتى لا تعيَ بطوننا إلاَّ ما أحللت**» من الطعام والشراب، فقد أحلّ اللَّه للإنسان بعض الطعام والشراب وحرّم بعضاً آخر، وأراد له أن لا يجعل

بطنه وعاءً إلاَّ للحلال منها مما يصلح أمر جسده أو توازن عقله أو صفاء روحه في ما يؤثّر عليه من ذلك كلِّه.

«ولا نتكلّفَ إلاّ ما يُدني من ثوابك ولا نتعاطى إلاّ الذي يقي من عقابك»، لأنَّ اللَّه قد جعل للإنسان أن يبذل جهده في ما يملكه من الطاقة الحركيّة التي تمثّل المعاناة والمشقّة في الأعمال التي يقوم بها في المجالات التي تؤدّي به إلى السعادة التي ينال بها ثوابَ اللَّه، وتبتعد به عن الشقاء الذي ينال به عقابه، لأنَّ المفترض في الجهد الإنساني أن يتحرّك في النجاة من الهلاك، وفي الوصول إلى مواقع السلامة.

«ثم خلّصْ ذلك كلَّه من رياء المرائين وسمعة المسمعين، لا نشركُ فيه أحداً دونك، ولا نبتغي به مراداً سواك»، فقد أراد اللَّه للإنسان أن يعيش في نطاق التوحيد الخالص الذي يُوصي بصفاء العمل في عمق النيّة الدافعة له، فلا يكون مشوباً بالرياء الذي يمثّل الاستغراق الذاتي في الحصول على مدح الناس له، وثقتهم به، ورضاهم عنه، ولا يكون مشدوداً إلى الحصول على السمعة الطيّبة لديهم، لأنَّ معنى ذلك هو انفتاح العبادة على الناس لا على اللَّه، مما يعني الشرك الخفيَّ في ما يراقب به الإنسانُ الناسَ إلى جانب اللَّه... في مضمون العبادة الخاضعة لحركة القلب التي تحدّد مسار حركة الجسد.

وهكذا نجد في هذا الفصل، أنَّ الصوم ليس مجرّد حالة ماديّة سلبيّة في ما هي اللذّة الغذائيّة أو الجنسيّة، بل هو حالةٌ روحية وعمليّة على مستوى الالتزام الأخلاقي الشرعيّ الذي يمثّل صوم الجسد عن كلّ ما حرمه اللَّه، وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك**، (وعدّد أشياءَ غير هذا)

وقال: لا يكنْ يوم صومك كيوم فطرك»[٣]. وفي كلمة أخرى له: «**إذا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ مِنَ الحَرَام والقَبِيْح وَدَعِ المِرَاءَ وَأذَى الخَادِمْ وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارُ الصَّائِمِ وَلا تَجْعَلْ يَوْمَ صَوْمِكَ كَيَوْمِ فِطْرِكْ**».

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّد، وقِفْنا فيه على مواقيتِ الصَّلواتِ الخمس، بحدودها التي حدَّدْتَ، وفروضِها التي فرضْتَ، ووظائِفها التي وظَّفْتَ، وأوقاتها التي وقَّتَّ، وأنزِلْنا فيها منزلةَ المصيبينَ لمنازلها، الحافظينَ لأركانِها، المؤدّين لها في أوقاتِها، على ما سنَّه عبدُكَ ورسولُكَ صلواتُك عليه وآلِه، في ركوعِها وسجودِها وجميعِ فواضِلِها، على أتمِّ الطَّهورِ وأسبَغِه، وأبْيَنِ الخشوعِ وأبلغِه...

أداء الواجبات بشروطها

وهذه جولةٌ ابتهاليّةٌ في آفاق الصلوات المفروضة في كلِّ يوم التي تمثّل القاعدة التي يرتكز عليها التطلّع الروحيّ إلى آفاق اللَّه، والعروج الفكري إلى مواقع رحمته، والانفتاح القلبي على كلِّ ساحات قُدسِه.. حيث يتحدّث الإنسان من خلالها إلى ربِّه في مناجاته وتسبيحه وتكبيره وحمده وتهليله، ويقف بين يديه خاشعاً في قيامه وركوعه وسجوده.. وليعيش في نهاياتها السلامَ على النبيِّ وعلى جميع عباد اللَّه الصالحين.. لتكون برنامجاً عمليّاً متحرّكاً مع آناء الليل وأطراف النهار، فتتحوّل إلى حزامٍ روحيّ يحيط

(٣) الكافي، ج: ٤، ص: ٨٧، رواية: ١.

بالإنسان في جميع أوضاعه ليقيه من الانحراف عن الخطّ المستقيم.

إنَّه الابتهال الخاشع إلى اللَّه أن يوفّق الإنسان للإخلاص للصلاة بجميع حدودها الزمنيّة والعمليّة، حتى ترتفع بروحه إلى اللَّه من خلال كلِّ منازلها ومواقعها وفواصلها وطَهُورها الذي يجمع إلى طهارة الروح طهارة الجسد، لتنفتح الصلاة المفروضة على الصوم المفروض فتزيده روحانيةً وعبوديةً للَّه فتقرّبه إلى خطّ التقوى الذي هو الهدف الكبير للصوم، كما هو الهدف الكبير لجميع العبادات.

ووفِّقنا لأن نَصِلَ أرحامَنا بالبرِّ والصِّلَةِ، وأن نتعاهَدَ جيرانَنا بالإفضالِ والعَطِيَّة، وأن نخلِّصَ أموالَنا من التَّبِعاتِ، وأن نطهِّرَها بإخراجِ الزكواتِ، وأن نراجعَ مَنْ هاجَرَنا، وأن نُنْصِفَ مَن ظَلَمَنا، وأن نُسالِمَ مَنْ عادانا، حاشا مَنْ عُودِيَ فيكَ ولكَ، فإنَّه العدوُّ الذي لا نُواليه، والحزبُ الذي لا نُواليه، والحزبُ الذي لا نُصافيه، وأن نتقرّب إليك فيه منَ الأعمالِ الزاكيةِ بما تُطهِّرُنا فيهِ من الذنوب، وتَعْصِمُنا فيه مما نستأنفُ من العيوب، حتى لا يورِدَ عليك أحدٌ من ملائكتِكَ إلاَّ دونَ ما نوردُ من أبوابِ الطاعةِ وأنواعِ القُربةِ إليك...

مضامين إنسانيّة

وهذا نداءٌ من قلب الحياة لاجتذاب التوفيق الإلهي في حركة المسؤوليّة في نطاق بعض المواقف المتصلة بالعلاقات الإنسانيّة وبالمبادرات الماليّة الخيِّرة، وبالأعمال الزكيّة التي تفتح للإنسان أبواب الرحمة الإلهية،

ليكون هذا الشهر المبارك شهر تصحيح العلاقات على الخطّ الذي يحبّه اللّه ويرضاه، وتحريك الطاقات في ساحات الإنفاق على الفئات المحرومة أو الجهات الخيِّرة، وتوجيه الأعمال في اتجاه الحصول على غفران الذنوب، وعلى العصمة من العيوب.

وهذا هو الذي يجعله منطلقاً للمضمون الإنساني في حركة المسؤوليّة في الإنسان، كما هو منطلق في تحريك المضمون الروحيّ في حركة العبادة في حياته، ليرتفعا به إلى المستوى الأعلى في رضوان اللّه.

صلة الرحم

«**ووفِّقْنَا لأن نَصِلَ أرحامَنَا بالبِرِّ والصِّلَة**» والأرحام جزءٌ من الخلايا الاجتماعيّة التي تتحرّك في الواقع الإنساني لتربط علاقات الإنسان بالآخرين في دائرة التوازن المسؤول، فهم أقرب الناس إليه في قرابة الدم، مما يجعل من العاطفة التي تشدّه إليهم حالةً طبيعية، وهم الأكثر اتصالاً بحياته في ما يمكن أن تصطدم فيه المواقف والمصالح والمشاعر، الأمر الذي قد يخلق لوناً من ألوان التماس اليوميّ بفعل الاحتكاك الدائم، ويؤدّي إلى إثارة المشاكل والتعقيدات في داخل هذا المجتمع الصغير المتشابك الأوضاع والعلاقات.. وهذا هو الذي جعل التخطيط الأخلاقيّ الإسلاميّ يمنح العلاقة بالأرحام وضعاً روحيّاً يمتصّ كلّ النتائج السلبيّة التي قد تَحْدُث في داخل الوضع المعقّد في شبكة العلاقات، بحيث يفكّر الإنسان بالنتائج الإلهيّة على مستوى صلة الأرحام في إيجابيّات المغفرة والثواب وطول العمر وَسَعة الرزق، أو على مستوى قطيعة الأرحام في سلبيّات الغضب الإلهي والعقاب الأُخروي، وقصر العمر وضيق الرزق، فلا تعود العلاقة بالأرحام سلباً أو إيجاباً، مجرد علاقةٍ شخصيّةٍ أو عائليّةٍ، في ما هي العلاقات الاجتماعيّة العاديّة، بل تتحوّل إلى حالةٍ سلوكيّةٍ في ما هو

الخط الإلهي الذي يؤكّد للإنسان المؤمن علاقاته بأقربائه في دائرة المسؤوليّة المتصلة بنتائجها بقضيّة المصير في الدنيا والآخرة. وفي ضوء ذلك، يمكن حلّ كثير من التعقيدات والسيطرة على بعض المشاكل من خلال العنصر الروحيّ في إخلاص الإنسان لربِّه بدلاً من العنصر الذاتيّ في علاقة الإنسان بأرحامه، لتتحرّك الإرادة الإيجابيّة في اتجاه صلة الأرحام بالبرّ والعَطيّة من موقع الارتباط برضوان اللَّه، لا بنوازع الذات.

وقد وردت الأحاديث المنفتحة على آيات اللَّه في وَصْلِ ما أمر اللَّه به أن يُوصَل، من حيث الوصول إلى رضوان اللَّه، وفي قطع ما أمر اللَّه به أن يُوصَل من حيث الوقوع في موارد غضب اللَّه، وقد جاء في خطبة النبي (ص) التي استقبل بها شهر رمضان الأمر بصلة الأرحام فيه والتأكيد على أنّ مَنْ وصل فيه رحمه وَصلَه اللَّه برحمته يوم يلقاه.

تعهّد الجيران

«**وأن نتعاهد جيراننا بالإفضال والعطيّة**» والجيران، كالأرحام في طبيعة العلاقة الوثيقة المتصلة بالحياة اليوميّة الدائمة في لقاء الجيران بعضهم ببعض، وفي ما يقتضيه ذلك من كثرة السلبيّات الناشئة في المصالح المتشابكة والأوضاع المعقّدة، والحساسيّات الدقيقة والعلاقات المتنوّعة، الأمر الذي لا يمكن السيطرة عليه بالحلول العاديّة المرتكزة على الأوضاع الماديّة في دائرة العلاقات الإنسانية، ولذلك كان التخطيط الأخلاقيّ الإسلاميّ ينطلق من التركيز على حُسْنِ الجوار بالإحسان إلى الجيران بالإفضال والعطيّة، وتحمُّل الأذى منهم، وبناء العلاقات بهم على أساس العفو والتسامح طلباً لرضى اللَّه، ليكون العنصر الروحيُّ الباحث عن مواقع القرب من اللَّه هو الأساس في احتواء كلّ السلبيّات.

وقد نصّ القرآن على الإحسان إلى الجار، قال تعالى: ﴿واعْبُدُوا اللَّه وَلا تُشْرِكُوا به شَيْئاً وَبالوالدَين إحْسَاناً وبذي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمساكين والجار ذي القُرْبَى وَالجار الجُنُب وَالصَّاحب بالجَنْبِ وابْن السَّبيل وَمَا مَلَكَت أيْمانُكُم إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء: ٣٦).

قيل: معنى «الجار ذي القُربى»، القريب ذو النسب. والجار الجُنُب الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل: الجار ذو القربى منك بالإسلام والجار الجنب المشرك البعيد في الدين، فقد رُوي عن النبي (ص) أنَّه قال: **«الجيران ثلاثة، فمنهم مَنْ له ثلاثة حقوق؛ حقُّ الإسلام وحقُّ الجوار وحقُّ القرابة، ومنهم من له حقّان: حقُّ الإسلام وحقُّ الجوار، ومنهم من له حقٌّ واحد، الكافر له حق الجوار»**[٤].

وقد جاء في الحديث عن رسول اللَّه (ص): **«ما زال جبرئيل (ع) يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنَّه سيورّثه»**[٥].

تزكية الأموال

«وأن نُخلِّص أموالنا من التَّبِعات وأن نُطهِّرها بإخراجِ الزّكوات». المال مسؤوليّة في دائرة الملكيّة التي هي وظيفةٌ فرديّة واجتماعيّة شرعيّة، فقد جعل اللَّه له حدوداً في أسباب الملكيّة والسلطنة، وفي حركة التصرّف وفي طبيعة العلاقات بالآخرين، في ما يتصل بأوضاعهم الماليّة المتصلة به، وبماله.. ولا بدّ للإنسان المؤمن الذي يخضع في حياته لأحكام اللَّه من أن يخلّص مالَه من التَبِعات، وهي الحقوق المتعلّقة به للَّه وللنّاس.

وللزّكاة حقٌّ متعلّقٌ بالمال، في ما افترضه اللَّه على عباده من إخراجها

(٤) مستدرك الوسائل، ج: ٨، باب: ٧٢، ص: ٤٢٤، رواية: ٩٨٧٨.

(٥) مَنْ لا يحضره الفقيه، ج: ١، ص: ٥٢، رواية: ١٠٨.

منه بطريقة معينة، وفي حدود محدودة باعتبارها سبيلاً لتطهير المال، كما ورد في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أموالِهم صَدَقَةً تُطهِّرُهُم وتُزكِّيهم بهَا﴾ (التوبة: ١٠٣)، وهي من الفرائض المؤكّدة التي دعت إليها الآيات القرآنيّة الكثيرة، كما وردت الأحاديث التي تهدّد مانع الزكاة بدخول النار.

وهكذا يريد اللَّه للإنسان المؤمن أن يعيش هذا الهمّ الكبير في مسؤوليّة المال في تخليصه من كلِّ الحقوق اللازمة له، وفي تطهيره بإخراج الزكاة منه، ليقف عند حدود اللَّه في نطاق العطاء المسؤول الذي يؤكد للإنسان إنسانيّته في انفتاحه على النّاس، كما يؤكّد له عبوديّته التي يتعبّد بها للَّه.

الدفع بالتي هي أحسن

«**وأن نراجع مَنْ هاجَرنا**» فنبادله في هجرانه لنا انفتاحاً عليه وعودةً إلى صُحبته، ورجوعاً إلى مواقع العلاقة الحميمة القديمة به: «**وأن نُنصف مَن ظلمنا**» بأن نسير معه في طبيعة المسألة التي تتّصل بِظُلاَمتنا عنده بالعدل، فلا نميل عن حدود الحقّ معه، ولا نعمل على معاملته بردود الفعل النفسيّة المليئة بالغيظ وبالحاجة إلى التشفّي، وبإثارة الحميّة الذاتيّة.. وهذا هو الخطُّ الشرعيُّ في زمام المبادرة، فلا نقابل ظلمَ ظالم لنا بأن نظلمه، بل أن نأخذ منه حقَّنا من دون زيادة، انطلاقاً من العقل الهادىء المتّزن الخاضع للشرع، البعيد عن نوازع الذات المنفعلة الغاضبة.

«**وأن نسالم من عادانا**» فنغلّب جانب المسالمة على جانب المحاربة، على أساس المصلحة العامة الحيّة في ما نأخذ به من أسباب ذلك، من أجل أن نُفسح في المجال له للتراجع عن عداوته. وذلك من خلال التوجيه الإلهي الذي أراد لنا أن يكون عملنا، في نطاق المشاكل الطارئة مع الآخرين، هادفاً إلى تحويل الأعداء إلى أصدقاء، وذلك قوله تعالى:

﴿ولا تَسْتَوي الحَسَنَةُ وَلا السيِّئَة ادْفَع بالَّتي هي أحْسَنُ فَإذَا الَّذي بَيْنَك وَبَيْنَه عَدَاوَةٌ كأنَّه وليٌّ حَمِيم﴾ (فصلت: ٤٣).

الموقف الصلب

«..**حاشا مَنْ عُوديَ فيك ولكَ فإنَّه العدوّ الذي لا نُواليه، والحزب الذي لا نُصَافيه**»، وهذا هو الاستثناء الإسلاميّ للمسألة الأخلاقيّة القائمة على أساس تقديم التنازلات الشعوريّة والعمليّة لمصلحة تحويل العدوّ إلى صديق، فإنَّ ذلك داخل في نطاق العلاقات الشخصيّة في المشاكل الخاصة أو العامةّ المتحرّكة في الدائرة الاجتماعيّة.. أمّا في المسائل المتصلة بالموقف الرساليّ الذي ينطلق فيه أعداء الرسالة وأعداء اللّه ليُثيروا المشاكل في ساحة الرسالة، وليُطلقوا التحديّات في مواجهة أولياء اللّه، من أجل إضعاف الموقف، وهزيمة الموقع، سواء تَمثّل وجودهم في جماعات متناثرة، أو في أحزاب منظّمة.. أمّا في هذه المسائل، فلا بدّ من الحسم في الموقف، لأنَّ المسألة ليست مسألة مشاعر يُراد تبريدها أو مشاكل معقّدة يُراد حلُّها، بل هي مسألة رسالة يُراد حمايتها، ومجتمعٍ يراد تقويته، وخطةٍ يُراد إسقاطها، ولذلك فلا بدَّ من الموقف الحاسم الذي يراقب العواطف الذاتيّة والانفعالات النفسيّة التي قد تجعل الإنسان خاضعاً للمؤثّرات السريعة التي قد تفتح القلب لأعداء اللّه في لحظة ضعف شعوريّ.

وهذا هو الذي ينبغي للإنسان المسلم أن يستوعبه في وعيه الرساليّ العمليّ، ليجعل عواطفه خاضعةً لحركة رسالته في مسألة السلامة العامة للرسالة من الذين يكيدون لها ويتربّصون بها الدوائر مستغلّين بعض نقاط الضعف لدى الطيّبين من أتباعها، فلا مجال للتسامح العاطفي في هذا المجال.

ولكن.. هل يعني ذلك أن يتحرّك الرساليّون عشوائياً في ردة الفعل السلبيّة ضدّهم ليتحرّكوا في فوضى انفعاليةٍ، أم أنّ عليهم أن يحرسوا أنفسهم من الانفتاح الروحيّ أو العاطفيّ عليهم لئلاّ يسقطوا أمامهم.. ليتابعوا السعي نحو تركيز الموقف بدقة؟

إنَّ القضية تتحرّك في الخيار الثاني، لأنّ التحرّك لا بدّ أن يخضع للتخطيط الواعي في مصلحة الرسالة، ليكون الأسلوب مدروساً والأجواء متوازنة والحسابات دقيقة، لأنَّ أيّ خطأ في الحسابات قد يُسيء إلى الموقف كلّه.

وأن نتقرَّبَ إليكَ من الأعمالِ الزاكية بما تطهِّرُنا فيه من الذنوب، وتعصمُنا فيه مما نستأنفُ من العيوب، حتى لا يُوردَ عليك أحدٌ من ملائِكَتِكَ إلاَّ دون ما نوردُ من أبوابِ الطاعةِ لك وأنواعِ القربةِ إليك.

العمل دليل الصدق

ثم تأتي الفكرة العامة التي تلاحق الشخصيّة الإنسانيّة في طهارتها الروحيّة، وفي سلامتها الأخلاقيّة.. فلا بدّ للإنسان من أن يدخل في برنامج عمليّ، يختار فيه الأعمال الزاكية التي تتميّز بمواقع القرب من اللَّه، لتترك تأثيرها الإيجابيّ في إيجاد حالة روحيّة تتميّز بالقوّة العاصمة التي تتطهّر فيها الشخصيّة من ضغط الذنوب عليها، وتبتعد عن العيوب التي تُثقل حركة الإنسان عن السير في الاتجاه السليم.. وفي ضوء ذلك نعرف أنَّ مسألة التصحيح السلوكيّ لا تتحدّد بالتوبة الفكريّة أو الشعوريّة، بل لا بدّ من أن تتمثّل بالممارسة العمليّة المضادّة التي تصدم ضغط الانحراف بقوّة الاستقامة، فينطلق العمل في خطّ اللَّه، فيرتفع منه إلى اللَّه، في تقارير الملائكة، المستوى

الذي يقلّ عنه عمل الملائكة من خلال ما نبلغه من الدرجة العالية في مواضع رضاك.

اللهمَّ إنّي أسألُك بحقِّ هذا الشهر، وبحقِّ مَنْ تعبَّدَ لكَ فيه مِنَ ابتدائِه إلى وقتِ فنائه، من مَلَكٍ قرَّبتَه أو نبيٍّ أرسلتَه أو عبدٍ صالحٍ اختصصتَه، أن تصلّيَ على محمّدٍ وآلِه، وأهِّلْنا فيه لما وعدْتَ فيهِ أولياءَك من كرامتِك، وأوجبْ لنا فيه ما أوجبتَ لأهلِ المبالغةِ في طاعَتِك، واجعلنا في نَظْمِ مَن استحقَّ الرفيعَ الأعلى برحمتك...

التطلّع إلى مواقع القرب

... وإذا كان القلب ينفتح على الخير في هذا الشهر لتتكامل كلُّ عناصر الحقّ في داخل الشخصيّة الإنسانيّة المؤمنة، فإنّه يخضع ويرقّ ويبتهل ويرتفع بكلِّ عمق الصوت الإلهيّ في روحه.. ويتوسّل بحقّ هذا الشهر وبحقّ كلِّ المتعبّدين للّه فيه من الملائكة والأنبياء والصالحين، أن يؤهّله فيه لكرامته الإلهيّة التي تجمع كل الرحمة والرضوان، وأن يوجب له كلَّ الفيوضات والألطاف التي تنساب من عطفه الإلهيّ على الذين استغرق وجوده كلَّ وجدانهم الروحيّ العمليّ حتى بلغ الدرجة العليا من طاعته، وأن يمنحه الارتفاع إلى مواقع الذين ارتفعت درجاتُهم إلى الرفيع الأعلى من خلال رحمته..

إنَّه الابتهال الخاشع الذي لا يتطلّع إلى عمله الذي يقدّمه بين يديه

ليستحقَّ عطاء ربه، بل يتطلّع إلى كلِّ مواقع القرب من اللّه في الزمن الذي منحه اللّه معنى القداسة في روحانيّته، وفي الملائكة والمقرّبين من الأنبياء والصالحين، ليقدِّمهم شفعاء بين يدي اللّه، وذلك في ما جعله اللّه لهم من الحقّ، من خلال إخلاصهم وطاعتهم له.. ولكنَّ رحمة اللّه وراء ذلك، لأنَّ رحمته تمتدّ إلى كلِّ عباده من دون حاجةٍ إلى شفيع، غير أنّه ـ سبحانه ـ يمنح بعض عباده شرف الشفاعة ليكرِّمهم بذلك، وليشفّعهم في من ارتضاه من خلقه.

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّد، وَجَنِّبْنا الإلحادَ في توحيدك، والتقصيرَ في تمجيدِك، والشكَّ في دِينك، والعمى عن سبيلِكَ، والإغفالَ لِحُرمَتِك، والانخداعَ لعدوِّكَ الشيطانِ الرجيم..

الابتهال لمواجهة الانحرافات

وهذه جولةٌ جديدةٌ في أجواء السلبيّات العقيديّة والعمليّة التي يمكن أن تحدث للإنسان لتنحرف به عن الخط المستقيم في وعي العقيدة، أو في استقامة العمل، فقد يخضع لشبهة فكريّة يهتزّ فيها يقينُه بتوحيد اللّه، فتميل به نحو خطّ الشرك، وقد يستسلم لحالة نفسيّة صعبة تسلب منه طُمأنينَته وسكينته الروحيَّة المنفتحة على اللّه.. وقد يفقد إحساسه بعظمة اللّه فيقصّر في تمجيده في ما هو الذكر للّه بصفاته وأسمائه الحسنى وآلائه العليا فيبتعد بذلك عن مواقع الإخلاص له.. وقد تطوف بالقلب

ظلالٌ من الشكّ في دين اللّه وهو الإسلام، من خلال ما يداخله من الأحاسيس والانفعالات، وقد يزول إشراقُ البصيرة في وجدانه ليتحوّل إلى ظُلمة تعميه عن تلمّس السبيل السويّ الذي يؤدّي به إلى اللّه في مواقع رضوانَه، وقد يغفل حرمة اللّه من حسابه، فيسيء إلى سموّ قدسه وعظمة جلاله، فيتصرّف في أفعاله وأقواله تصرّفَ المتمرّد الجاهل، وينتهك حرمة ربّه في ذلك كلّه، وقد ينخدع بالشيطان الرجيم في أمانيّه وغروره وَتَزيينِه وتثبيطه وتهاويله، فيمتدُّ في طريقه إلى غاياته الخبيثة، ويلتقي بمعصية اللّه في أوضاعه، فيسقط في هاوية الهلاك.. وهنا تنطلق الابتهالات الروحيّة في نداء خاضع يستعطفُ اللّهَ أن يجنّبه ذلك كلّه، لِتسلَم روحُه من كلِّ التهاويل التي تبتعد بها عن صفاء العقيدة واستقامة الطريق.

اللهمَّ صلِّ على محمّد وآلِه، وإذا كان لك في كلِّ ليلةٍ من ليالي شهرنا هذا رقابٌ يعتِقُها عفوُك ويهَبُها صَفْحُك، فاجعلْ رقابَنا من تلك الرِّقاب، واجعلنا لشهرِنا من خيرِ أهلٍ وأصحاب..

إنّها دعوات العباد الذين يشعرون بثقل الخطايا على رقابهم حتى كأنَّ النار تُطلُّ عليهم لتملكهم، كما يملك صاحب الحق مورد حقِّه، فيتعلّقون بوعد اللّه لهم بأن يعتق في هذا الشهر رقاباً خاطئة من النار، ويبتهلون إليه أن يجعل رقابهم من تلك الرقاب، وأن يوثّق صلتهم بهذا الشهر كما لو كانوا من أهله وأصحابه في نتائج الخير والمغفرة التي خصّ اللّه بها أيامه ولياليه.

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآله، وامْحَقْ ذنوبَنا مع امِّحاقِ هلالِه، واسلَخْ عنَّا تبعاتِنا معَ انسلاخِ أيّامِه، حتى ينقضيَ عنَّا وقد صفَّيتَنا فيه من الخطيئات، وأخلصتَنا فيه من السيئات...

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِه، وإن مِلْنا فيهِ فعدِّلْنا، وإن زِغْنا فيهِ فقوِّمْنا، وإن اشتملَ علينا عدوُّك الشيطانُ فاستنقذْنا منه..

قلق المصير

إنَّه استيحاء الكلمة في عنوان الزمن للكلمة في مسؤوليّة العمل، فسينمحق هلالُه، ويذهب وجهُه ونورُه للناظرين.. عندما يغيب في قلب الظلام، فهل يمحق اللَّهُ ذنوبَنا، آنذاك، فلا يبقى لنا ذنبٌ في أفق مصيرنا في الحياة؟! وستنسلخ أيامه من دائرة الوجود لتفسح في المجال لأيّام أخرى في شهر آخر، فهل تنسلخ معه النتائج السلبيّة لأعمالنا السيّئة في ما ينتظرنا من عقوبة، فلا نتحمّل مسؤوليّتها غداً بين يدي اللَّه.. لنعيش صفاء الشخصيّة فلا تُعكِّرُها الخطايا، ولا تشوّهها السيّئات؟!

إنَّه قلق المصير الذي يشغل فكر الإنسان المؤمن في ما يستقبله في الآخرة.

ثم يخشى هذا الإنسان أن تتجمّع العناصر القلقة لتميل به عن الحقّ أو لتنحرف به عن خطّ الاستقامة، فيطلب من ربه أن يعدّله إذا مال، وأن يقوّمه إذا زاغ عن الخطّ.. وإذا ذكر الشيطان الذي هو عدوّ اللَّه وعدوّ الإنسان، وخاف منه على نفسه عندما يشتمل على كيانه في ما يمكن أن

يسيطر عليه بغروره وخداعه، فإنَّه يبتهل إلى اللَّه أن يستنقذه منه، لأنَّه ـ وحده ـ المهيمن على كلِّ شيء.

إنه الإنسان الباحث عن السلامة في المصير، والاستقامة في الخط، والبعد عن الانحراف، والخلاص من الذنوب.. المؤمّل باللَّه في ذلك كلّه.

اللهمَّ اشْحَنْهُ بعِبادَتِنا إيَّاك، وزيِّن أوقاتَهُ بطاعتِنا لك، وأعِنّا في نهاره على صيامِه، وفي ليلِه على الصلاةِ والتضرُّعِ إليكَ والخشوعِ لك والذِّلَّةِ بين يديك، حتى لا يشهدَ نهارُهُ علينا بغفلة، ولا ليلُهُ بتفريط.

اللهمَّ واجْعَلنا في سَائرِ الشُّهورِ والأيامِ كذلِك ما عمَّرْتَنا..

الزمن شاهد حيّ

.. ويعود الإنسان المؤمن إلى نفسه، وإلى هذا الشهر الذي جعله اللَّه فرصةً له للتعبئة الروحيّة المنطلقة من خلال الإقبال على اللَّه والانفتاح على عبادته.. ولهذا فإنَّه يبتهل إلى اللَّه ويستعين به على أن يجعله مشحوناً بعبادته إيّاه، فلا يخلو وقت فيه من أوضاع العبادة الخاشعة، وأن يزيّن أوقاته بطاعته له، في كلِّ ما أمر به أو نهى عنه، فإنَّ الطاعة هي التي تمنح الزمن إشراقَه وحُسنَه وزينته، في المعنى العميق لهذه الكلمات.. وأن يُعينه على صيامه في النهار وقيامه في الليل، باعتبار أنّ ذلك هو مظهر الطاعة، وعنوان العبادة، ولا سيّما الصلاة التي تمثّل العبادة المتحرّكة المتنوّعة في شكلها ومضمونها، وروحها المتمثّل في

الخشوع الخضوع والذِلّة بين يديّ اللَّه.. وبذلك يكون الزمن هو الشاهد الحيّ الذي يشهد له أمام اللَّه بأنَّه لم يغفل في نهاره، ولم يفرّط في ليله، بل قام بواجبه كما يريد اللَّه له في ذلك كلّه.

وليست المسألة مسألة الشهر في خصوصيّته، بل المسألة مسألة الزمن كلِّه في امتداد العمر، في ما يشاء اللَّه له من الامتداد في مدى الحياة.

إنّها الرغبة العميقة في الانفتاح على اللَّه بعبادته وبطاعته ليكون الإنسان بذلك قريباً إلى اللَّه مرضيّاً عنده، في كل عمره.

واجْعَلنا مِن عبادِكَ الصالحينَ الذينَ يَرِثونَ الفِردَوسَ هم فيها خالدون، والذين يُؤْتونَ ما آتوا وقلوبُهم وَجِلةٌ أنّهم إلى ربهم راجعون، ومن الذينَ يسارعونَ في الخيراتِ وهم لها سابقون..

الشوق إلى الجنة

وأخيراً.. يفكّر هذا الإنسان بأن ينضم إلى عباد اللَّه الصالحين، فيطلب من اللَّه أن يجعله منهم، لأنَّهم يرثون الفردوس هم فيها خالدون، فيتقلّبون في نعيم الجنة في رضوان اللَّه، لأنّهم كانوا يمارسون أعمالهم في قلق روحيّ عميق، وَوَجلٍ نفسيّ كبير، فهم يفكّرون برجوعهم إلى اللَّه، ووقوفهم بين يديه، ويخافون أن لا تكون أعمالهم مقبولة عنده، ولأنَّهم كانوا يسارعون في الخيرات بعد أن علموا أنَّ اللَّه ينال المسارعين فيها والسابقين لها برحمته ورضوانه.

إنَّه شوق الإنسان إلى أن يكون من المجتمع الصالح المنفتح على اللَّه، الواصل إلى جنّة اللَّه من خلال عمله وصلاحه.

اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وآلِهِ، في كلِّ وقتٍ وكلِّ أوان، وعلى كلِّ حال، عددَ ما صلّيتَ على مَن صلّيتَ عليه، وأضعافَ ذلكَ كلِّه بالأضعافِ التي لا يُحصيها غيرُك، إنَّك فعّالٌ لما تُريد..

الوفاء للنبي

.. ويبقى للنبيّ محمد (ص) دوره الكبير في وعي المؤمنين الذين يشعرون بفضله على الناس كلّهم وعلى الحياة كلّها، لأنَّه قد أدّى رسالة اللَّه خير أداء وجاهد في سبيلها خير جهاد، الأمر الذي يفرض عليهم أن يعبّروا عن إخلاصهم له، وارتباطهم به واعترافهم بجميله، وذلك بالطريقة التي علّمهم اللَّه إيّاها، وهي الصلاة عليه، ليحرّكوها في كلِّ وقت وفي كلِّ أوان وعلى كلّ حال بكلّ الأعداد التي يمكن للصلاة أن تنطلق بها، فيمن صلّى اللَّه عليه من رسله وعباده، وفي أكثر من ذلك بالأضعاف التي لا يُحصيها غيره.. وهكذا يدخل الإنسان المسلم شهر رمضان بوعي، ويحضُنه بمحبة، ويتحرّك معه بمعرفة، وينفتح على واجباته بإخلاص.

* * *

دعـــاء
وداع شـــهـر رمضـــان

«اللَّهُمَّ يـا مَنْ لا يَرْغَبُ في الجَـزَاءِ، وَيَا مَنْ لا يَنْدَمُ عَلَـى العَطَاءِ، وَيَا مَنْ لا يُكافيءُ عَبْـدَهُ عَلَى السَّوَاءِ، مِنَّتُكَ ابْتِداءٌ، وعَفْوُكَ تَفَضُّلٌ، وَعُقُوبَـتُكَ عَدْلٌ، وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ، إنْ أَعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطَاءَكَ بِمَنٍّ، وَإنْ مَنَعْتَ لَـمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَـدِّياً، تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وَأنْتَ أَلْهَمْـتَـهُ شُكْرَكَ، وَتُكَافيءُ مَنْ حَمَدَكَ وَأنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ.

تَسْـتُـرُ عَلَى مَنْ لَوْ شِـئْتَ فَضَحْـتَـه، وَتَـجُـودُ عَلَـى مَنْ لَوْ شِـئْتَ مَنَعْتَه، وَكلاهُما أهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِـيحَةِ والمَنْعِ، غَيْرَ أنَّكَ بَنَيْتَ أفْعَالَكَ عَلَى التَّـفَضُّلِ، وَأجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَـى التَّجـاوُزِ، وَتَلَقَّيْتَ مَنْ عَـصَاكَ بِالحِلْمِ، وأمهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِهِ بِالظُّلْمِ، تَسْـتَنْظِرُهُمْ بِأنَاتِكَ إلى الإنَابَة، وَتَتْـرُكُ مُـعَـالَجَـتَـهُمْ إلَى الـتَّـوْبَة، لِكَيـلا يَهْـلِكَ هَالِكُهُم، وَلا يَشْقَى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُم، إلاَّ عَنْ طولِ الإعْذَارِ إليْـه، وبَعْـدَ تَرَادُفِ الحُجَّةِ عَلَيْهِ، كَرَماً مِنْ عَفْوِكَ يَا كَرِيم، وَعَائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يَا حَلِيم.

أنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَـهُ التَّوْبَةَ، وَجَـعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ البَابِ دَلِيلاً عَنْ وَحْيِكَ لِئَلاّ يَضِلُّوا عَنْه، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، ﴿تُوبُوا إلى اللَّه تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُم يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨)، فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ المَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ البَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ.

وَأَنْتَ الَّذِي زِدْتَ فِي السَّوْمِ عَلَى نَفْسِكَ لِعِبَادِكَ تُرِيدُ رِبْحَهُمْ فِي مُتَاجَرَتِهِمْ لَكَ، وَفَوْزَهُمْ بِالوِفَادَةِ عَلَيْكَ وَالزِّيَادَةِ مِنْكَ، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَيْتَ، ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠) وَقُلْتَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١) وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَائِرِهِنَّ فِي القُرْآنِ مِنْ تَضَاعِيفِ الحسناتِ.

وأَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَهُمْ بِقَوْلِكَ مِنْ غَيْبِكَ وَتَرْغِيبِكَ الَّذِي فِيهِ حَظُّهُمْ عَلَى مَا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْرِكْهُ أَبْصَارُهُم، وَلَمْ تَعِهِ أَسْمَاعُهُمْ، وَلَمْ تَلْحَقْهُ أَوْهَامُهُمْ، فَقُلْتَ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) وَقُلْتَ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم: ٧) وَقُلْتَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠) فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ، وَشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ، وَدَعَوكَ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَباً لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُمْ مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ، وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقاً مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيْهِ عِبَادَكَ مِنْكَ، كَانَ مَوْصُوفاً

بالإحْسَانِ وَمَنعُوتاً بِالامْتِنَانِ وَمَحْمُوداً بكُلِّ لِسان.

فَلَكَ الحَمْدُ مَا وُجِدَ في حَمْدِكَ مَذْهَبٌ، وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ، وَمَعْنىً يَنْصَرِف إليْهِ، يَا مَنْ تَحمَّدَ إلَى عِبَادِهِ بالإحْسَانِ والفَضْلِ، وَغمَرَهُمْ بِالمَنِّ والطَّوْل، مَا أَفْشَى فِينَا نِعْمَتَكَ وأَسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَكَ وَأخَصَّنا بِبِرّكَ، هَدَيْتَنَا لدينك الَّذي اصْطَفَيْتَ وملَّتك الَّتي ارْتَضَيْتَ وَسَبِيلِكَ الَّذِي سَهَّلْتَ، وَبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ وَالوُصُولَ إلى كَرَامَتِكَ.

اللَّهُمَّ وَأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الوَظَائِف وخَصَائِص تِلْكَ الفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَان، الَّذي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُور، وَتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الأزْمِنَة والدُّهُور، وآثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أوْقَاتِ السَّنَة بِمَا أنْزَلْتَ فيه مِنَ القُرْآنِ وَالنُّور، وَضَاعَفْتَ فِيه مِنَ الإيمان، وَفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ، وَرَغَّبْتَ فِيه مِنَ القِيَام، وَأحْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ القَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيرٌ مِنْ ألْفِ شَهْر.

ثُمَّ آثَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، وَاصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِكَ دُونَ أهْلِ المِلَل، فَصُمْنَا بِأمْرِكَ نَهَارَهُ، وَقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ، وَتَسبَّبْنَا إلَيْهِ مِنْ مَثُوبَتِك، أنْتَ المَلِيءُ بِمَا رُغِبَ فِيهِ إليْكَ، الجَوَادُ بِمَا سُئِلْتَ مِنْ فَضْلِكَ، القَرِيبُ إلى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَك.

وَقَدْ أقَامَ فِينَا هَذَا الشَّهْرُ مَقَامَ حَمْد، وَصَحِبَنَا صُحْبَةَ مَبْرُورٍ، وَارْبَحَنَا أفْضَلَ أرْبَاحِ العَالَمين، ثُمَّ قَدْ فَارَقَنَا عِنْدَ تَمَامِ وَقْتِه وَانْقِطَاعِ مُدَّتِهِ وَوَفَاءِ عَدَدِه، فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وَدَاعَ مَنْ عَزَّ فِرَاقُهُ

عَلَيْنَا، وَغَمَّنَا وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا، وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ المَحْفُوظُ وَالحُرْمَةُ المَرْعِيّةُ وَالحَقُّ المَقْضِيّ.

فَنَحْنُ قَائِلُون: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللَّه الأَكْبَرَ، وَيَا عِيدَ أَوْلِيَائِهِ الأَعْظَمَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا أَكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الأَوْقَات، وَيَا خَيْرَ شَهْرٍ فِي الأَيَّامِ وَالسَّاعَات، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الآمَالُ، وَنُشِرَتْ فِيهِ الأَعْمَالُ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِينٍ جَلَّ قَدْرُهُ مَوْجُوداً، وَأَفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُوداً، وَمَرْجُوّاً آلَمَ فِرَاقُه، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ أَلِيفٍ آنَسَ مُقْبِلاً فَسَرَّ، وَأَوْحَشَ مُنْقَبِضاً فَمَضَّ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ القُلُوبُ وَقَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوب.

السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أَعَانَ عَلَى الشَّيْطَان، وَصَاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإِحْسَان، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا أَكْثَرَ عُتَقَاءَ اللَّه فِيكَ، وَمَا أَسْعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَطْوَلَكَ عَلَى المُجْرِمِينَ وَأَهْيَبَكَ فِي صُدُورِ المُؤْمِنِين، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لا تُنَافِسُهُ الأَيَّام، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلام، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ المُصَاحَبَةِ وَلا ذَمِيمِ المُلابَسَة.

السَّلامُ عَلَيْكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالبَرَكَات وَغَسَلْتَ عَنَّا دَنَسَ الخَطِيئَات، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَماً وَلا مَتْرُوك صِيَامُهُ سَأَماً، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِه وَمَحْزُونٍ عَلَيْه قَبْلَ فَوْتِه، السَّلامُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنَّا، وَكَمْ مِنْ خَيْرِ اللَّه فِيضَ بِكَ عَلَيْنَا، السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ القَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْر، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَحْرَصَنَا بِالأَمْسِ عَلَيْكَ وَأَشَدَّ شَوْقَنَا

غداً إلَيْك، السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى فَضْلِكَ الَّذِي حُرِمْنَاهُ وَعَلَى مَاضٍ مِنْ بَرَكاتِكَ سُلِبْنَاهُ.

اللَّهُمَّ إنَّا أهلُ هذا الشَّهْرِ الذي شَرَّفْتَنَا بِهِ وَوَفَّقْتَنَا بِمَنِّكَ لَهُ، حِينَ جَهِلَ الأشْقِيَاءُ وَقْتَهُ وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فضْلَه، أنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَهَدَيْتَنَا لَهُ مِنْ سُنَّتِه، وَقَدْ تَوَلَّيْنَا بِتَوْفِيقِكَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ عَلَى تَقْصِيرٍ، وأدَّيْنَا فِيهِ قَلِيلاً مِنْ كَثِيرٍ، اللَّهُمَّ فَلَكَ الحَمْدُ إقْرَاراً بِالإسَاءَةِ واعْتِرَافاً بِالإضَاعَةِ، وَلَكَ مِنْ قُلُوبِنَا عَقْدُ النَّدَمِ، وَمِنْ ألْسِنَتِنَا صِدْقُ الاعْتِذَارِ، فَأجِرْنَا عَلى مَا أصَابَنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أجراً نَسْتَدْرِكُ بِهِ الفَضْلَ المَرغُوبَ فيه، ونعتاضُ بِهِ مِنْ أنْوَاعِ الذُّخْرِ المَحْرُوصِ عَلَيْهِ، وَأوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ عَلَى مَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ، وَأبْلِغْ بِأعْمَارِنا ما بَيْنَ أيدِينَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ المُقْبِلِ، فَإذَا بَلَّغْتَنَاهُ فَأعِنَّا عَلَى تَنَاوُلِ مَا أنْتَ أهْلُهُ مِنَ العِبَادَةِ، وَأدِّنَا إلَى القِيَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَأجْرِ لَنَا مِن صَالِحِ العَمَلِ مَا يَكُونُ دَرْكاً لِحَقِّكَ فِي الشَّهْرَيْنِ مِنْ شُهُورِ الدُّهُورِ.

اللَّهُمَّ وَمَا ألْمَمْنَا بِهِ مِنْ شَهْرِنَا هَذَا مِنْ لَمَمٍ أوْ إثْمٍ، أوْ واقَعْنا فِيهِ مِنْ ذَنْبٍ وَاكْتَسَبْنَا فِيهِ مِنْ خَطِيئَةٍ عَلَى تَعَمُّدٍ مِنَّا أو عَلَى نِسْيَانٍ ظَلَمْنَا فِيهِ أنْفُسَنَا أوْ انْتَهَكْنَا فِيهِ حُرْمَةً مِنْ غَيْرِنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحمّدٍ وآلِه، واسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ، وَاعْفُ عَنَّا بِعَفْوِكَ، وَلا تَنْصِبْنا فِيهِ لأَعْيُنِ الشَّامِتِينَ، وَلا تَبْسُطْ عَلَينا فِيهِ ألْسُنَ الطَّاعِنِينَ، واسْتَعْمِلْنا بِمَا يَكُونُ حِطَّةً أوْ كَفَّارَةً لِمَا أنكَرْتَ مِنَّا فِيه، بِرَأفَتِكَ الَّتِي لا تَنْفَدُ وَفَضْلِكَ الَّذِي لا يَنْقُص.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْبُرْ مُصِيبَتَنا بِشَهْرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وَفِطْرِنَا، وَاجْعَلْهُ مِنْ خَيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا، وأجْلَبَهُ لِعَفْوٍ وَأمْحَاهُ لِذَنْبٍ، وَاغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا عَلَنَ.

اللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلاخِ هذَا الشَّهْرِ مِنْ خَطَايَانَا، وَأخْرِجْنَا بِخُرُوجِهِ مِنْ سَيِّئَاتِنَا، واجْعَلنَا مِنْ أسْعَدِ أهْلِهِ بِهِ وَأجْزَلِهِمْ قِسْماً فِيهِ وَأوْفَرِهِمْ حَظّاً منه.

اللَّهُمَّ ومَنْ رَعَى هذَا الشَّهْرَ حَقَّ رِعَايَتِه وَحَفِظَ حُرْمَتَهُ وَقَامَ بِحُدُودِهِ حَقَّ قِيَامِهَا، واتَّقَى ذُنُوبَهُ حَقَّ تُقَاتِهَا، أوْ تَقرَّبَ إلَيْكَ بِقُرْبَةٍ أوْجَبَتْ رِضَاكَ لهُ، وَعطَفَتْ رَحْمَتَكَ عَلَيْه، فَهَبْ لَنَا مِثْلَهُ مِنْ جُودِكَ، وَأعْطِنَا أضْعَافَهُ مِنْ فَضْلِك، فَإنَّ فَضْلَكَ لا يَغِيضُ، وإنَّ خَزَائِنَكَ لا تَنْقُص بَلْ تَفِيضُ، وإنَّ مَعَادِنَ إحْسَانِكَ لا تَفْنَى، وإنَّ عَطَاءَكَ لَلْعَطَاءُ الْمُهَنَّا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واكْتُبْ لَنَا مِثْلَ أُجُورِ مَنْ صَامَهُ أوْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ.

اللَّهُمَّ إنَّا نَتُوبُ إلَيْكَ فِي يَوْمِ فِطْرِنَا الَّذي جَعَلْتَهُ للمُؤْمنِينَ عِيداً وَسُرُوراً، وَلأهْلِ مِلَّتِكَ مَجْمَعاً ومُحْتَشَداً، مِنْ كُلِّ ذنْبٍ أذْنَبْنَاهُ أوْ سُوءٍ أسْلَفْنَاهُ أو خَاطِرِ شَرٍّ أضْمَرْنَاه، تَوْبَةَ مَنْ لا يَنْطَوِي عَلَى رُجُوعٍ إلى ذَنْبٍ وَلا يَعُودُ بَعْدَهَا فِي خطيئَةٍ، تَوْبَةً نَصُوحاً خَلُصَتْ مِنَ الشَّكِ وَالارْتِيَابِ، فَتَقَبَّلْهَا مِنَّا وارْضَ عَنَّا وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَوْفَ عِقَابِ الوَعِيدِ وَشَوْقَ ثَوَابِ المَوْعُودِ، حَتَّى نَجِدَ لَذَّةَ مَا نَدْعُوكَ بِهِ، وَكَآبَةَ مَا نَسْتَجِيرُ بِكَ مِنْهُ، وَاجْعَلْنَا عِنْدَكَ مِنَ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ أَوْجَبْتَ لَهُمْ مَحَبَّتَكَ وَقَبِلْتَ مِنْهُمْ مُرَاجَعَةَ طَاعَتِك، يَا أَعْدَلَ العَادِلِين.

اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَهْلِ دِينِنَا جَمِيعاً مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ وَمَنْ غَبَرَ إِلى يَوْمِ القِيَامَة.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلائِكَتِكَ المُقَرَّبِين، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِه كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أَنْبِيَائِكَ المُرْسَلِين، وصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِه كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِين، وَأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ العَالَمِين، تُبَلِّغُنَا بَرَكَتَهَا وَيَنَالُنَا نَفْعُهَا وَيُسْتَجَابُ بِهَا دُعَاؤُنَا، إِنَّكَ أَكْرَمُ مَنْ رُغِبَ إِلَيْه، وَأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْه، وَأَعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِه، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِير».

إيحاءات استقبال شهر رمضان

إذا كان استقبال شهر رمضان للمؤمن، فرصةً للانفتاح على الآفاق الرحبة الإلهيّة في امتداد المعاني الروحيّة التي يُراد له أن يعيشها في روحه وفي وجدانه، فإنَّ وداع شهر رمضان، قد يحمل له بعضاً من الألم واللوعة، في ما يفتقده من أجواء، أو يخسره من نتائج على مستوى الثواب الإلهي على الأعمال التي يحتويها هذا الشهر في واجباته ومستحبّاته، مما يجعل الإنسان خاضعاً للمشاعر السلبيّة، تماماً كما لو كان في واحةٍ خضراء وانتقل إلى صحراء قاحلة، لأنّ الزمن القادم قد يختزن في داخله بعض الفرص، ولكنها لن ترقى إلى فرصة هذا الشهر المبارك، الذي جعله اللّه شهره الذي يُدخل فيه عباده إلى ضيافته الروحيّة في ما يُسبغه عليهم من الألطاف، ويفيض عليهم من الرحمات، ويمنحهم من البركات، بما يفتح لهم فيه أبواب جنّاته، ويقودهم إلى ساحات رضوانه.

شهر رمضان، هو الموسم الذي ينفتح على كلّ قضايا الإنسان وحاجاته في ما يحقّقه اللّه له منها، ممّا يتناسب مع مواقع صلاحه في دنياه وآخرته، ولذلك كان المحروم، هو الذي حُرم غفران اللّه في هذا الشهر العظيم، كما جاء في خطبة رسول اللّه (ص)، التي استقبل بها شهر رمضان في آخر جمعة من شعبان. ولكنّ الإمام زين العابدين (ع) في أسلوب الدعاء، يتّجه في المسألة اتجاهاً آخر، حيث يفتح وعي الإنسان المؤمن على النتائج الكبيرة التي حصل عليها فيه، ويحرِّك المشاعر الحميمة التي تجعل بين شعور الإنسان وبين أيام هذا الشهر رابطةً قويّة تؤدّي إلى اختزان المعاني الروحيّة في كيانه، فلا تذهب بذهاب هذا الشهر، بل تعمل على التخطيط للاستفادة منها في إغناء الزمن القادم في

غيره من الشهور، بكلّ ما يحمله من الخصائص الفريدة التي يمكن أن يحملها الزمن من خلال العمق الإنسانيّ في معرفة اللّه والشعور بالمسؤوليّة.

وفي ضوء ذلك، لا يكون الزمن مجرّد لحظات طائرة في الفراغ، بل يكون قيمة تمتلىء بالإنسان في فكره وشعوره وحركته في الحياة، حيث يأخذ الزمن من الإنسان معناه وروحه كما يأخذ الإنسان منه حركته وخطَّ سيره، وبذلك يفقد الزمن معناه التجريديّ كعنصر مستقلّ في إعطاء الحياة خطّها الطويل، بل يكون شيئاً في الإنسان فيما يكون الإنسان شيئاً في عمليّة تداخلٍ وامتداد.

ثمّ يثير التطلّع الفكري والرّوحيّ في ابتهال الإنسان للّه أن يمدَّ في عمره ليلتقي برمضان جديد في فرصةٍ جديدةٍ للعمل والحياة.

ولعلّ قيمة هذا الدعاء، في بعض فقراته، من الناحية الفنيّة، أنّه يحوِّل الشهر إلى كائنٍ حيّ صديقٍ في مشاعره ومواقفه، فيخاطبه كما يخاطب صديقه، ويتحدّث إليه بالجانب الشعوريّ الذي يتفجّر في الوجدان حبّاً وحزناً وتطلّعاً إلى اللقاء الجديد.

وهو في الوقت نفسه، يأخذ من العناوين الكبيرة لإيحاءات هذا الشهر، عناوين متحرّكة للحياة التي يستمرّ في مواجهتها بمنطق المسؤوليّة، لتبقى معه في النتائج الحاسمة لقضية المصير الأبديّ في موقفه أمام اللّه في ما يريده اللّه منه من مواقف وأعمال.

اللَّهُمَّ يا مَنْ لا يَرْغَبُ في الجَزَاءِ، وَيَا مَنْ لا يَنْدَمُ عَلَى العَطَاءِ، وَيَا مَنْ لا يُكَافِىءُ عَبْدَهُ عَلَى السَّوَاءِ، مِنَّتُكَ ابْتِدَاءٌ، وَعَفْوُكَ تَفَضُّلٌ، وَعُقُوبَتُكَ عَدْلٌ، وَقَضَاؤُكَ خِيَرَةٌ، إنْ أعْطَيْتَ لَمْ تَشُبْ عَطَاءَكَ بِمَنٍّ، وإنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّياً، تَشْكُرُ مَنْ شَكَرَكَ وأنْتَ ألْهَمْتَهُ شُكْرَكَ، وَتُكَافِىءُ مَنْ حَمَدَكَ وَأنْتَ عَلَّمْتَهُ حَمْدَكَ.

العطاء سرّ الذات الإلهية

إنّها البداية التي يُراد لها أن تطوف بالإنسان المؤمن في آفاق التصوّر الإيماني للَّه في صفاته الإلهيّة، التي تطلّ على شؤون المخلوقين في علاقة الخالق بهم، ليتعرّف، من خلال ذلك، موقعه من ربّه من خلال موقع اللَّه من عباده في رعايته لهم، ولطفه بهم، ليكون الدعاء حالة وعي في العقيدة من حيث هو حالة ابتهال في الحاجة في المعرفة العميقة الواسعة.

فاللَّه هو سرّ العطاء الذي لا يقف عند حدّ، ولا يجتذب أيّ شيء في مقابله، وذلك من خلال انفتاح رحمته على عباده في ما يحتاجون إليه في شؤون حياتهم وحركة وجودهم، لأنّه خالقهم ورازقهم، فكما أعطاهم الوجود من دون مقابل، فإنّه يعطيهم حاجات الوجود بالطريقة نفسها.

ثمّ ما هي حاجته إلى الجزاء وهو الغنيّ عن خلقه، وما هي قدرة عباده على تقديم العِوَض لألطاف اللَّه ورحماته، وماذا يملكون من كلّ ما بأيديهم وما حولهم ما دام ذلك كلّه من اللَّه؟!

وهو المعطي الذي لا يندم على العطاء، لأنّ العطاء ينطلق من حكمته

بالمعنى نفسه الذي ينطلق فيه من كرمه، من خلال تدبيره للوجود، على أساس أنّه أهل العطاء الذي ينطلق من فيض الرحمة في ذاته ليشمل من يستحقّ ذلك من خلال العمل، ومن لا يستحقّه، وذلك هو الإيحاء في الفقرة المأثورة في بعض الأدعية:

«فإنْ لم أكنْ أهلاً أنْ أبلغ رحمتك فرحمتُك أهلٌ أن تبلغَني وتَسَعَني لأنَّها وَسِعَتْ كلَّ شيء».

ولذلك فلا معنى للندم، ما دامت المسألة خاضعة لخطّة الرحمة، وما دامت القضية منطلقة من سعة الكرم، فإنّ الذين يندمون هم البخلاء، أو الذين يخافون الفقر من خلال العطاء.

وإذا كان العطاء سرّ ذاته، فإنّه لا يخضع للحسابات الدقيقة على أساس أفعال العبد الحسنة والقبيحة، ليزيده في جانب أو لينقصه في جانب آخر... ولذلك فإنّه لا يكافي عبده على السواء، بل يضاعف له الأجر إن كان العمل خيراً، وقد يغفر له إن كان شرّاً، وذلك هو قوله تعالى في مضاعفة الحسنة: ﴿مَنْ جاءَ بالحَسَنَة فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالها﴾ (الأنعام: ١٦٠). وفي المغفرة قوله تعالى: ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَة للنَّاسِ عَلَى ظُلْمهمْ﴾ (الرعد: ٦). أمّا الذي يبقى في دائرة المسؤوليّة والعذاب، فإنّه لا يستعجله بل يمهله ويترك له فرصة التراجع والتوبة، وذلك ممّا لا تفرضه طبيعة المعصية.

«مِنّتُك ابتداء»: والمراد بها النعمة التي يتفضّل اللّه بها على الإنسان من دون استحقاق، لأنّ الإنسان لم يبدأ عملاً يجتذب النعمة، بل اللّه هو البادىء في ذلك على كلّ عباده.

«عفوك تَفَضُّل»: لأنّ المذنب لا يستحقّه ـ أي العفو ـ في موقع ذنبه، بل يستحق ـ بدلاً من ذلك ـ العذاب، ولكنّ اللّه ينفتح عليه من موقع الرحمة من

خلال ألطافه في ما يعرفه من نقاط ضعفه، ليفسح له في المجال للثقة باللَّه والانفتاح عليه من أبواب الحِلْم الكبير.

«**وعقوبتُك عَدْلٌ**»: لأنّ اللَّه أقام الحجّة على عباده في ما ألزمهم به من أوامره ونواهيه، وفي ما أغدقه عليهم من نِعَمِه، فإذا أخطأوا فإنّهم يواجهون المسؤوليّة في خطٍّ التوازن بين العمل والجزاء، والمقدّمات والنتائج.

ثمّ إنّ الظلم ينطلق من عقدة ضعف يختزن الخوف والحاجة في نفس الظالم، واللَّه هو القويّ القادر الذي لا يحتاج إلى عباده ولا يخاف قوّتهم، لأنَّه القاهر فوقهم، والمُهيمنُ عليهم من موقع أنّهم المخلوقون له الخاضعون لتدبيره، فكيف يكون ضعف الخالق أمام المخلوقين، وما هو سرّ الحاجة إلى الظلم، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿**فاليَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيْئاً ولا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنْتُم تَعْمَلُون**﴾ (يس: ٥٤).

«**وَقضاؤُكَ خِيَرةٌ**»: والقضاء هو حكم اللَّه الذي يحتوي حياة الإنسان في ما يتّصل بكلّ أوضاعه، من حيث هو أحد الموجودات في حركة النظام الكونيّ الذي يدبّره اللَّه على أساس المصلحة الكامنة في عمق الوجود لكلّ المخلوقات في الدوائر العامة والخاصّة، حتى في ما قد يبدو مثيراً للآلام والمشاكل، فإنَّ النتائج السلبيّة الخاصّة في وعي الإنسان وشعوره، لا تعني السلبيّة المطلقة في طبيعة القضايا المتّصلة بها، لأنّ من الممكن أن يكون ما هو سلبيّ من جهةٍ إيجابيّاً من جهةٍ أخرى، وهذا ما نلاحظه في اختلاف النظرة إلى الأمور على مستوى النظرة العامة أو الخاصة، حيث يختلف جانب التقويم للمسألة على أساس اختلاف طبيعة النتائج هنا وهناك: وهو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَعَسى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لكُم وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شرٌّ لكُم**﴾ (البقرة: ٢١٦) في

حديث اللّه عن القتال الذي إذا نظرنا إليه في الدائرة الضيّقة في حياة الفرد كان شرّاً، لأنّه يهدّد سلامته، بينما يكون خيراً في دائرة المجتمع الواسعة، في ما يحقّقه من نتائج كبيرة على مستوى العزّة والكرامة والحريّة والعدالة.

وفي قوله تعالى في علاقة الأزواج بزوجاتهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيراً كَثِيراً﴾ (النساء: ١٩). فإنّ الفكرة هي أن لا يحكم الناس على الأشياء من خلال النظرة السطحيّة التي تنظر إلى الجانب الظاهر منها، بعيداً عمّا تستبطنه من الخصائص العميقة في الجذور، وهذا هو الذي يجب أن يدرسه الإنسان في كلّ القضايا المتعلّقة بحياته على مستوى المصير الذي يمثّل عاقبة الأمور، في ما قد تبدو فيه النهاية على عكس البدايات، كما أنّ من الضروريّ له أن لا يحدّق بها من زاوية واحدة، فإنّ الاستغراق في جانب واحد، قد يُبعده عن النظرة الحقيقيّة الواقعيّة التي تحتاج إلى دراسة الأمور من جميع الزوايا لتجمع كلّ عناصرها الذاتيّة.

وربما يحتاج الإنسان - في هذا المجال - إلى أن يدرس موقعه من حيث هو فرد مستقلٌّ في حاجاته الشخصيّة وتطلّعاته الذاتيّة، ومن حيث هو جزءٌ من المجتمع الصغير أو الكبير في ارتباط قضاياه بقضايا الناس، في المنافع والمضارّ، فقد تتعارض الصفة الفرديّة مع الصفة الاجتماعيّة في طبيعة الأوضاع العامة والخاصّة، ممّا يجعل المسألة إيجابيةً من الناحية العامة، وسلبيّةً من الناحية الخاصة، فلا بدّ له من أن يتحمّل السلبيّات الذاتيّة لمصلحة الإيجابيّات الكبيرة.. وبذلك تستقيم النظرة إلى الواقع الإنسانيّ في دائرة النظام الكونيّ الذي هو جزءٌ منه في خطّ التوازن في النظرة والحكم على أساس المقدّمات والنتائج.

وقد نلاحظ في بعض الأدعية الخطَّ التربوي الذي يُوحي للإنسان بأنْ يشكر اللَّه على الحرمان كما يشكره على العطاء، من موقع الثقة المطلقة بالخير في قضاء اللَّه، الذي يعرف من مصلحة الإنسان ما لا يعرفه الإنسانُ من نفسه، وذلك هو قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) في دعائه في الرضى إذا نظر إلى أصحاب الدنيا:

«اللَّهُمَّ وطيّب بقضائِكَ نفسي، ووسّع بمواقع حُكمِك صدري، وهبْ لي الثقةَ لأقرّ معها بأنّ قضاءَكَ لم يجر إلاّ بالخِيَرة، واجعل شكري إيّاك على ما زويت عنّي أوفرَ من شكري إيّاك ما خوّلتني».

فإنّ الإيمان باللَّه الحكيم العادل الرحيم اللطيف بعباده، يُوحي للمؤمن بهذا الشعور الذي لا ينطلق من حالة انسحاقٍ في القبول بالنتائج السلبيّة، بل من حالة اقتناع روحيّ ينطلق من القناعة الفكريّة بالعمق الذي يتحرّك فيه القضاء من موقع الرحمة والحكمة والعدالة واللطف الإلهي الكبير.

«إنْ أعْطَيْتَ لمْ تَشُب عَطَاءَكَ بِمَنٍّ وَإِنْ مَنَعْتَ لَمْ يَكُنْ مَنْعُكَ تَعَدِّياً».

إنّك تعطي - يا ربِّ - كلّ عبادك، لأنّ العطاء سرُّ ذاتك في ما هو سرُّ كرمك وعمقُ رحمتك، فليس هو شيئاً يُراد به اجتذاب اعترافٍ بالجميل منهم، في ما يتطلّبه أهل العطاء من ذلك ممن يُعطونه، لتغذية الفراغ الذاتي الذي يبحث عمّا يملأه من مدح الناس وحمدهم، كما يبحث الصوتُ عن الصدى، واللّه هو الغنيُّ عن عباده في كلّ شيء من خلال غناه الذاتيّ، فلا معنى للمنّ في معنى عطاء اللَّه لعباده، لأنّهم ليسوا شيئاً منفصلاً عنه، فهم خَلْقُه ومُلْكُه وموقعُ تدبيره، وهم بعض عطائه في وجوده، كما أنّ نِعَمَه التي يُفيضها عليهم من توابع ذلك ومن شؤونه، فكيف يمنّ المعطي على عطائه مع غناه المطلق.

إنّك قد تمنع عنّي بعض نعمك، فقد لا تمنحني المال، وأنا في حاجةٍ إليه، وقد لا تُسبغ عليّ العافية، وأنا أتطلّع إليها، وقد لا تعطيني الكثير ممّا أطلب وأرغب فيه... ولكن هل يكون منعك لوناً من ألوان التعدّي عليّ، كما هو شأن المخلوقين عندما يمنع بعضهم بعضاً ما يحتاجون إليه ممّا يملكونه، في ما هو حقّ المخلوق على المخلوق في تبادل الحاجات، وتقابل الحقوق؟

إنّ التعدّي في التصرّف السلبيّ، في ما هو المنع والحرمان، يفرض حقّاً للمحروم لدى الحارم، ودَيْناً للممنوع لدى المانع.. وهنا نتساءل - يا رب - أيّ حقّ لنا عليك، وكلّ وجودنا هبةٌ منك ومُلْكٌ لك، فأنت صاحبُ الحق في المنع، كما أنت صاحب الحقّ في العطاء، وأنت تفرض لعبادك الحقّ في ما تجعله من الحقّ لهم عليك، فهو مستمَدّ منك، وليس شيئاً من الذات في علاقاتها الطبيعيّة بغيرها، ولذلك فإنّ المتعدّي لا معنى له، فأنت المحسن إنْ أعطيت، وأنت الحكيم إنْ منعت، وقد جاء في الحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ما يشير إلى ذلك، فقد سأله بعض الناس فقال: أخبرني عن الجواد، فقال: «**إنّ لكلامك وجهين، فإنْ كنتَ تسألُ عن المخلوق فإنّ الجواد الذي يؤدّي ما افترض اللَّهُ عليه، وإنْ كنتَ تسألُ عن الخالق فهو الجواد إنْ أعطى، وهو الجواد إنْ منع، لأنّه إنْ أعطاك أعطاك ما ليس لك، وإن مَنَعَك مَنَعك ما ليس لك**»[1]. وهذا ما جاء في كلام أمير المؤمنين (ع): «**وكل مانع مذموم ما خلاه**»[2].

«**تشكر من شكرك وأنت ألهمته شكرك وتكافيء مَنْ حَمدَك وأنت علّمته حمدَك**».

يا ربِّ... إنّه لطفك وحنانك وكرمك.. إنّك تفتح لي في قلبي المنفتح عليك

---

(١) الكافي، ج: ٤، ص: ٣٨، رواية:

(٢) نهج البلاغة، والمعجم المفهرس، خطبة: ٩٠.

وعلى نعمك، نافذةً على الإحساس بكلّ جميلك الذي لا يُحدّ، فينطلق عقلي وقلبي وشعوري ولساني بالشكر لك على ما أوليتني من نعمك التي احتضنت وجودي كلَّه بالخير والفرح والسعادة الروحيّة والجسديّة... ويفاجئني - يا رب - وأنا المُثقلُ بكل هذا اللّطف الإلهيّ الذي يفيض عليّ بالحنان والرحمة، أنّك تشكرني على أنْ شكرتك، فأذوب وأذوب حتى أشعر بكلّ كياني يذوب أمامك، لأنّي أفكّر وأشعر بأنَّ هذا الشكر من إلهامك، فأنت الذي أعطيتني العقل الذي اكتشف فيه عمقَ نعمتك في وجودي، ومنحتني الحواس التي أشعر فيها بكلّ مواقع النِعَم في حياتي، ليكون الشكر نتيجة عقل يفكّر وحسٍّ يُبصر ويسمع ويشم ويذوق ويلمس، فأيّ ربّ عظيم لطيف أنت، عندما تشكر مَنْ شكرك وأنت ألهمته شكرك.

وتحمدك نفسي على كلّ مواقع الحمد في الكون، وفي كياني الداخليّ في ما تمثّله آفاق عظمتك وامتداد نعمك، وفي ما تنفتح عليه روحي عن ذلك كلّه في ما علّمتني من أسرار الحمد ومن أساليبه ووسائله؛ فمنك المعرفة التي انطلقت من حقائق الجمال والجلال والكمال في ذاتك لتدخل في مواضع الفكر من عقلي ومواقع الإحساس من شعوري.. وإذا بي أطلّ من جديد على كرمك الواسع في فيض العطاء، فأجد منك - يا ربِّ - لطف المكافأة على هذا الحمد الذي هو هبةٌ منك، لأنّ إحساسي بالحمد ليس شيئاً أمنحك إيّاه فيزيد في عظمتك، ولكنّه شيء يرتفع بروحي إليك في آفاق المعرفة العليا الرحبة التي تجعلني كبيراً في القُرب منك.

تَسْتُرُ عَلَى مَنْ لَوْ شِئْتَ فَضَحْتَه، وَتَجُودُ عَلَى مَنْ لو شِئْتَ مَنَعْتَه، وَكِلاهُما أهْلٌ مِنْكَ لِلْفَضِيحَة والمَنْعِ، غَيْرَ أنَّكَ بَنَيْتَ أفْعَالَكَ عَلَى التَّفَضُّل، وَأجْرَيْتَ قُدْرَتَكَ عَلَى التَّجَاوُز، وَتَلَقَّيْتَ مَنْ عَصَاكَ بِالحِلْم، وَأمْهَلْتَ مَنْ قَصَدَ لِنَفْسِه بِالظُّلْمِ، تَسْتَنْظِرُهُمْ بِأنَاتِكَ إلى الإنَابَةِ، وَتَتْرُكُ مُعَالَجَتَهُمْ إلَى التَوْبَةِ، لِكَيْلا يَهْلِكَ هَالِكُهُم، وَلا يَشْقَى بِنِعْمَتِكَ شَقِيُّهُم، إلاَّ عَنْ طول الإعْذَارِ إليْهِ وبَعْدَ تَرَادُفِ الحُجَّة عَلَيْهِ، كَرَماً مِنْ عَفْوِكَ يَا كَرِيم، وَعَائِدَةً مِنْ عَطْفِكَ يَا حَلِيم.

فعل اللّه مبنيّ على التفضّل

يا ربِّ، إنَّني عندما أتطلّع إليك في آفاق الألوهية الرحبة التي لا تضيق على أحد بل تتسع ألطافها لكلّ الناس، فماذا أرى؟ إنَّني أرى السموّ يرتفع ويعلو في كلّ مدارج الرفعة والعلوّ، فينظر إلى خلقه بعين الرحمة لا بعين الانتقام، فيتفضّل عليهم بما يفتح لهم أبواب الانفتاح عليه بالاطمئنان إلى الأمل الكبير في العودة إلى مواقع رضاه في مواقع طاعته، لأنّه لم يغلق عليهم أبواب رحمته ومغفرته في ما فتح لهم من أبواب التوبة إليه.

إنّك ـ يا ربِّ ـ تعلم ما يقوم به عبادك الخاطئون من فضائح وخطايا في سرّهم وعلانيتهم، وتطلّع على ما يكنّونه في وجدانهم من أسرار عميقة تتصل بموقع النيّة في أفعالهم، وبموطن الإحساس في مشاعرهم، ممّا لا يريدون ظهوره وإطلاع الآخرين عليه، وأنت القادر على أن تفضحهم أمام الناس بما تملكه من وسائل ذلك، وهم يستحقّون الفضيحة لسوء نيّتهم وفعلهم، ولكنّك ـ برحمتك ـ

لم تفضحهم، حتى تترك لهم الفرصة للتراجع وللإحساس برحمتك في سترك عليهم، فيدفعهم ذلك إلى الحياء منك في ما يتمرّدون، وفي ما تستر عليهم.

وهناك البعض من الذين تعقَّدت أفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم فابتعدت عن مواقع رضاك في خطوط طاعتك، وابتعدوا ـ بذلك ـ عن آفاق رحمتك، فاستحقّوا المنع من جودك وعطائك، ولكنّك تبادرهم بالعطاء السخيّ من رزقك لينفتحوا عليك من عمق أفضالك وألطافك. وهكذا كان الخطّ الرحيم الحليم الكريم الغفور في ما تتصرّفُ به في واقع عبادك الخاطئين، فقد بنيت أفعالك على التفضّل فأعطيتهم ما لا يستحقّونه، وأجريت قدرتك على التجاور فلم تؤاخذهم بسوء أعمالهم، وتلقّيت مَنْ عَصَاك بالحِلْم ففتحتَ له أبواب التوبة، وأمهلتَ مَن قصد لنفسه بالظلم فتركت له الفرصة ليعدل معها بالاستقامة في الطريق، والرجوع عن الانحراف، لأنّك الواسع في كرمك، والعظيم في رحمتك، فلا يضيق عليك عفو ولا رحمة، ولا يُرهقك انتظار الخاطئين ليرجعوا إليك من قاعدة التوبة، لأنّك خلقت عبادك بيدك، وعرفت نقاط ضعفهم ونقاط قوّتهم، فأردت لهم أن يمتدّوا في ساحات الفكر الذي يهديهم إلى سواء السبيل عندما تترادف الحجج عليهم، ويكثر الإعذار إليهم، فيكتشفون ما ينتظرهم في آفاق رحمتك، فيرجعون إليك ويستريحون إلى عفوك ويهرعون إلى وعدك بقبول التائبين والغفران للخاطئين المذنبين.. وذلك هو الذي يقودهم إلى التوازن في وعي المسؤولية في ما يملكونه من طاقات، وفي ما يحرّكونه من خطوات، وفي ما يركّزونه من علاقات ببعضهم البعض، ممّا يجعلهم في موقف الطاعة للّه وإسلام الأمر كلّه له.

وذلك هو الذي يعطي الإنسان الصورة الحيّة عن لطف اللّه بعباده في ما يقودهم إلى مواقع العودة إليه بكلّ الوسائل التي تختزن الرحمة، وتحرّك الأفكار

والمشاعر في خطّ الواقعيّة الرساليّة في ما يأخذون به أو يتركونه، فلا يهلك هالكهم - في حال اختيارهم الهلاك - إلاّ بعد استنفاد كلّ الحجج، ولا يشقى شقيّهم إلاّ بعد ابتعاده عن كلّ ما وفّره اللّه له من أسباب السعادة، وذلك في نطاق عنوان واحد يتّسع لكلّ أفعال الإنسان وأقواله وعلاقاته؛ وهو التوبة.

أَنْتَ الَّذي فَتَحْتَ لِعِبَادِكَ بَاباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ، وَجَعَلْتَ عَلَى ذَلِكَ البَابِ دَلِيلاً عَنْ وَحْيِكَ لِئَلاَّ يَضِلّوا عَنْه، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، ﴿تُوبُوا إِلى اللَّه تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأَيْمَانِهِمْ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ (التحريم: ٨)، فَمَا عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ ذَلِكَ المَنْزِلِ بَعْدَ فَتْحِ البَابِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ.

نداء المحبة الدائم

يا ربِّ، كيف لا ينفتح عليك عبادُك بكلّ الأمل والرجاء في القُرب إليك مهما ابتعدت بهم الذنوب عن ساحة قُدْسِك، وأنت الذي لا تترك مجالاً لانفتاحهم عليك إلاّ لتفسح لهم أكثر من فرصة لذلك، لأنّك تعرف سرّهم وعلانيّتهم في ما ينحرفون فيه عن الطريق، أو في ما يمارسونه من الخطيئة، انطلاقاً من مواقع الاهتزاز في مشاعرهم، وعناصر الإثارة في غرائزهم، وإيحاءات الانحراف في أوضاعهم، ممّا يحتاجون فيه إلى الكثير من الرحمة التي تجتذبهم إلى الخير وتُبعدهم عن الشرّ، في ما تهيّىء لهم من ظروف

التراجع عن ذلك كلّه، عندما يواجهون ألطاف الخير في شخصيّاتهم من خلال الإيحاء الروحي بأنَّ اللّه يدعوهم إلى العودة إليه وإلى الثبات في مواقع رضاه، وإلى الاتجاه نحو الهدوء في العقل، والاستقامة في الخطوات إلى الطريق المستقيم، ليكون الانحراف في حركتهم مجرّد حالةٍ طارئة لا تستقرُّ في الاتجاه، وليكون الاهتزاز في مناطق الإثارة مجرّد وضعٍ سريع لا يلبث أن يزول بفعل عناصر الثبات في الإيمان وفي التقوى.

وهكذا دعوتَ عبادك إلى عفوك، ولكن لا ليحصلوا عليه بدون إرادة أو معاناة، بل أردت لهم أن يحصلوا عليه من خلال الباب الروحيّ الذي يمتزج فيه الوعي للصفات الإلهيّة مع الالتزام الإنساني في ما هو حقٌّ اللّه على عباده من الإحساس بالعبوديّة المطلقة التي لا يملكون معها أيّ شيء من حرية الاختيار خارج نطاق الطاعة، كما يتداخل فيه الشعور، ويتحرّك فيه العنصر الروحيّ في دائرة العنصر العملي وهو التوبة التي تختصر في حركة الإنسان كلَّ معاني الانفتاح على اللّه، والانغلاق عن كلِّ مواقع الشيطان، في عملية إرادةٍ قوية وتصميم حاسم..

ثم أكّدتَ ذلك في الخطّ الذي رسمتَه لهم بكلّ وضوح في وحيك في ما أظهرت لهم من خصائصه، وبيّنتَ لهم من ملامحه، حتى يتعرَّفوا عليه بطريقةٍ دقيقة.. وذلك هو التوبة النصوح التي تعبّر عن توافق ظواهرهم وبواطنهم في عملية التغيير، وعن صدق النيّة وقوّة العزم وإرادة الثبات، بحيث لا مجال فيه لأيّ تراجع أو اهتزاز.

وهذا هو ما تحدّثتَ به إليهم في كتابك الذي أطلقتَ فيه نداء الدعوة إلى التوبة ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (التحريم: ٨).

إنّك تدعوهم إلى العودة إليك من موقع الصدق الذي يعبّر عن الاستقامة في خطّ طاعتك، من خلال إرادة التغيير الذي ينتقلون به من خطّ الشيطان

إلى خطّ اللّه.. فهذا هو الطريق الوحيد الذي يربطهم بك من جديد، إنّك توحي إليهم بأنّك لا ترفضهم لمجرد أنّهم عصوك وتمرّدوا عليك، بل تعلن لهم أنّك تتقبّلهم في أيّة لحظة يريدون فيها العودة، وتدعوهم إلى أن ينفتحوا على ذلك في نداء محبّة ولطف وحنان ورحمة.

ثمّ تابعت النداء بالإيحاء إليهم بأنّ عليهم أن يعيشوا روحيّة الرجاء بمغفرة اللّه من خلال التوبة... وإذا كانت المسألة عندهم رجاءً يحمل في داخله بعض عناصر الخوف، في ما تريد أن توحي إليهم بالتحرّك نحوك في شعور تمتزج فيه الرغبة بالرهبة كوسيلةٍ من وسائل التربية الروحيّة التي يتحرّك فيها الإنسان في روحيّة العبوديّة بين الخوف والرجاء ليتأكّد موقعه في إخلاصه للّه، في قلق الإنسان الباحث عن مواقع رضاه، إذا كانت المسألة عندهم رجاءً في الخطّ التربويّ، فإنّها عندك - يا ربّ - قرار بالعفو عمّن يعيش في أعماقه الرغبة الحقيقيّة في التطلّع نحو رضاك، وهذا هو قولك:

﴿عَسى رَبُّكُم أنْ يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئاتِكُم ويُدْخِلكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَار﴾ (التحريم: ٨).

فذلك هو الأفق الجديد للتوبة، أن يتحوّل الماضي في نتائج مسؤوليّته إلى صحيفة بيضاء لا أثر فيها للخطيئة السوداء، ولا للانحراف الأعمى، لأنّ الحاضر التائب يهيّىء جوّ الغفران للماضي الخاطىء، وأن يكون المستقبل البعيد هو مستقبل النعيم الذي يلقاه الناس التائبون في الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار، حيث يعيشون فيها الإحساس بالجمال والشعور بالطمأنينة.. هناك في ذلك اليوم الذي يؤكّد اللّه فيه رعايته لعباده الصالحين.

﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَه نُورُهُم يَسْعى بَيْنَ أَيْديهم وَبِأَيْمَانِهم يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغْفِر لَنَا إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٍ﴾ (التحريم: ٨).

فـأنت ـ يا رب ـ لا تُدخل الخزي والعـار على عـبادك الصـالحين الذين عـاشـوا في مـجتمع الإيمان باللّه، والسـير فـي خطّ شـريعته بقيـادة النبي الذي حـمل الرسـالـة ودعـا إلـى اللّه وإلـى طاعـتـه، لأنّك اطّلعت على قلـوبهم فـرأيت فـيـهـا النور الذي يشعّ بالإيمان فـيـتـفـايض علـى سـاحـاتـهم في طريقهم الطويل، وينطلق في أَيْمانهم التي يحرّكونها فـي خطّ الجهاد وفي سـبيل اللّه... فـإذا شـعـروا بـأنّ هـناك نقـصـاً في هـذا النور الذي أرادوه أن يتكامل، توجّهوا إليك بكلّ إشـراقة الحقيقة الإلهيّة في كيانهم، ليطلبوا منك أن تكمل لهم هـذا النور الذي ضـاع منـهم بعـضـه بفـعل ظلام الخطيـئـة، وتغـفـر لـهم حـتى تكون الحـيـاة لديهم نوراً في حـركـة الإيمان والطاعـة، ونوراً في حركة العفو والمغفرة، وهكذا يبتهل إليك عبادك لأنّك القادر على كلّ شـيء، والمهيمن على الوجود كلّه وعلى الجزاء كلّه، فـأيّ ربّ عظيم أنت يا رب، وأيّ خـالق رحيم أنت يا رب.. وكيـف يبتـعد عبادك عن الدخـول إلى عفوك من باب التوبة المفتوح على مصراعيه، وما هو عذرهم في ذلك كلّه؟.

وَأَنْتَ الَّذي زِدْتَ في السَّوْمِ عَلَى نَفْسكَ لعـبَادكَ تُريدُ رِبْحَهُمْ في مُتاجَرتِهِمْ لَكَ وَفَوْزَهُمْ بِالوِفادَةِ عَلَيْكَ وَالزِّيَادَةِ منْك، فَقُلْتَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَيْتَ، ﴿مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عشرُ أَمْثالِها ومَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلُهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠) وَقُلْتَ: ﴿مَثَلُ الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ في سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١) وَقُلْتَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثيرةً﴾ (البقرة: ٢٤٥) وَمَا أَنْزَلْتَ مِنْ نَظَآئِرِهِنَّ في القُرآنِ مِنْ تَضاعِيفِ الحَسَنَاتِ.

التجارة مع اللَّه

لقد كان وجودنا بعض عطائك وكرمك، كما كانت نِعَمُك الوافرة في حركة هذا الوجود شاهداً على لطفك ورحمتك، وهذا ما يعيشه عبادك المؤمنون بك المبتهلون إليك في وجدانهم الإيمانيّ، عندما يرون الفيض الإلهي يَنهَمرُ عليهم من كلِّ جانب من دون أن يكون لديهم أيّ عمل يقدّمونه بين أيديهم ليستحقّوا به ذلك. ولقد دعوتنا للعمل في كلّ مواقع طاعتك، في ما يتصل بحياتنا الخاصة في ما يتحرّك به وجودنا الذاتي من رغبات وحاجات، وفي ما يتصل بحياتنا مع الناس في ما تفيضه علينا من مسؤوليّات وأوضاع، فأردتنا أن نعيش العطاء في طاقاتنا في ما نقدّمه من خير لأنفسنا وللناس وللحياة في نطاق أوامرك ونواهيك، ليكون وجودنا فاعلاً منتجاً على مستوى الوجود كلّه، ولم تجعل عملنا هذا مجرّد مسؤوليّة عباديّة نتعبّد فيها إليك على أساس ما يجب علينا لك من أنواع الطاعة، من دون أن نحصل من ذلك على شيء في ربح الذات لنفسها في ما تريده من خير، بل جعلته نوعاً من التجارة معك في ما تجتذبه من الربح المخزون عندك واعتبرته قرضاً يحمل لنا فرص الزيادة المضاعفة. وهكذا دعوت عبادك إلى التجارة معك، وأنت الذي رزقتهم ما يتاجرون به وزدتهم في الربح لتزيدهم رغبةً في التسامي إلى درجات القُرب إليك، وحركةً في خطّ المسؤوليّة في تحريك الحياة نحو الانطلاق إلى مواقع الخير للإنسان كلّه في جميع مجالاته، ليكون الإنسانُ إنسانَ العمل الصالح الخيّر في ما تحتاجه الحياة من طاقاته، وليكون إنسان اللَّه في ما يفرضه عليه من كلّ مواقع الطاعة، وملامح العبوديّة له في وجوده.

وهكذا كانت الحسنة ـ أيّة حسنةٍ ـ عشرة أمثالها، وكان الإنفاق ﴿في

سَبِيلِ اللَّه كَمَثَلِ حبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل في كُلِّ سُنْبُلَةٍمائَةُ حَبَّة وَاللَّهُ يُضاعفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وكأنَّ الذي يقرض اللَّه قرضاً حسناً في ما يقدّمه للآخرين من طاقته وماله، يستحقّ الأضعاف الكثيرة من الربح والأجر الكريم، وذلك في عملية تربوية إيحائيّة بأنَّ قضية العمل الصالح ليست مجرّد قضيةٍ ترتبط بالمبدأ في ما يخطّط له من مواقع ومواقف، ولكنّها قضيّة الذّات في ما تتطلّع إليه من أرباحٍ ومنافع.. وأنَّ الذاتيّة في حساب العمل تمثّل قيمةً كبيرة في ميزان اللَّه عندما يكون العمل للَّه في ما يتقرّب به الإنسان إليه في خدمة الإنسان والحياة، لأنَّ اللَّه أراد للإنسان أن يطيعه ويتعبّد إليه طمعاً في جنّته وخوفاً من ناره ورغبة في الأجر العظيم، ولم يفرض عليه أن يفعل ذلك من دون ثمن على أساس استحقاق اللَّه للعبادة في ذاته، وذلك على أساس أنَّ اللَّه لا يريد للإنسان أن يبتعد عن خصائص إنسانيّته في نطاق بشريّته، فيكون مَلَكاً يفكر في العمل من ناحية التجريد، بل أراد له أن يكون بشراً في نطاق حاجاته الحاضرة والمستقبلة على مستوى الدنيا والآخرة.

ولهذا أعطى السعي نحو المسؤوليّات العامة والخاصة معنى التجارة والبيع في ما يجتذبانه من قضايا الربح والتعويض في الطموحات الذاتيّة، ليعيش الإنسان هاجس ذلك في دنياه وآخرته على أساس الخطّ المستقيم.

«وَأنْتَ الَّذِي دلَلْتَـهُمْ بِـقَوْلِكَ مِنْ غَـيْبِكَ وَتَرْغِـيبِكَ الَّذِي فِـيـهِ حَظُّهُمْ عَلَى مَـا لَوْ سَتَرْتَهُ عَنْهُمْ لَمْ تُدْرِكْـهُ أبْصَـارُهُمْ، وَلَمْ تَعِـهِ أسْمَـاعُـهُمْ، وَلَمْ تَلْحَـقْهُ أوْهَامُـهُمْ، فقُلْتَ: ﴿فَاذْكُرُونِي اذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي ولا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢) وَقُلْتَ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُم لأزيدَنَّكُم ولَئِنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابي لَشَديد﴾ (ابراهيم: ٧) وَقُلْتَ: ﴿ادْعُوني أسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرين﴾ (غافر: ٦٠) فَسَمَّيْتَ دُعَاءَكَ عِبَادَةً، وَتَرْكَهُ اسْتِكْبَاراً، وَتَوَعَّدْتَ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ، فَذَكَرُوكَ بِمَنِّكَ، وَشَكَرُوكَ بِفَضْلِكَ، وَدَعُوكَ بِأَمْرِكَ، وَتَصَدَّقُوا لَكَ طَلَباً لِمَزِيدِكَ، وَفِيهَا كَانَتْ نَجَاتُهُم مِنْ غَضَبِكَ، وَفَوْزُهُمْ بِرِضَاكَ، وَلَوْ دَلَّ مَخْلُوقٌ مَخْلُوقاً مِنْ نَفْسِهِ عَلَى مِثْلِ الَّذِي دَلَلْتَ عَلَيهِ عِبَادَكَ مِنْكَ كانَ مَوْصُوفاً بالإحْسَانِ وَمَنعُوتاً بِالامْتِنَانِ وَمَحْمُوداً بِكُلِّ لِسان.

ذكر اللّه حاجة إنسانية

ويبقى لطفك بعبادك يغمر حياتهم ويرعى مصيرهم عندما تدلّهم على الطريق الذي يُؤدّي إليك فيرفع درجتهم عندك، ويحقّق لهم السعادة لديك، في ما يوحي به ذلك كلّه من علاقة العبد بربّه وعلاقة الرب بعبده، فهناك مبادرة من الإنسان تتحرّك في طريقته في التعبير عن شعوره بحضور اللّه في وجدانه وفي الوجود كلّه، بحيث يجده في أجواء الغيب السابح في المطلق، كما لو كان في أجواء الشهود الغارق في الحسّ، فيذكره في آفاق

ألوهيّته بكلّ مواقع عظمته وموارد نعمه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ويتحوّل الذِّكر عنده إلى حقيقةٍ حيّةٍ في العقل والإحساس وحركته في الحياة.. وهنا تلتقي المبادرة الإنسانية في خطّ العبوديّة الخالصة المخلصة بالرحمة الإلهية، فيذكر اللَّهُ عبدَه بالرحمة واللّطف والحنان والمغفرة، كما ذكره عبده بالإخلاص والاعتراف والتوسّل والعبادة.

وهكذا أراد اللَّه لعباده أن يذكروه ليذكرهم، في ما يريد أن يثيره في تفكيرهم من أنَّ نسيانهم له في كلِّ مواقع الحياة عندهم سيكون تأثيره لديه أن ينساهم فيهملهم في عمق مسألة المصير، وهذا ما عبّر عنه اللَّه بقوله في حديثه عن أمثال هؤلاء في موقفهم يوم القيامة في ساعة الحساب في حوارهم مع اللَّه: ﴿ومَنْ أعْرَضَ عَنْ ذكْري فإنَّ لَهُ مَعيشَةً ضَنْكاً ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامَة أعْمَى * قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَني أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصيراً * قَالَ كَذلكَ أتَتْكَ آياتُنا فنَسيتَها وكَذلكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾ (طه: ١٢٤ـ١٢٦)، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُم﴾ (التوبة: ٦٧).

وليست المسألة مسألة حاجة إلهيّة في ذكر الإنسان لربه، بل هي حاجة إنسانيّة في انفتاح الإنسان على مصالحه في الحياة وفي المصير من خلال ذلك، حيث يكون نسيانه للَّه نسياناً لنفسه عندما يستولي عليه الشيطان في كلِّ مصادره وموارده، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ولا تكُونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللَّه فَأنْسَاهُمْ أنْفُسَهُم أولئكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾ (الحشر: ١٩).

وبذلك يكون ذكر اللَّه في وعي الإنسان وسيلةً من وسائل ذكر الإنسان لنفسه. وإذا كان الذكر حركةً في وعي الإنسان لربّه، فإنّه يجتذب الشكر الذي يمثّل وعي الإنسان لنعم اللَّه في حياته في كلِّ مواقع وجوده في تفاصيلها الصغيرة والكبيرة، بحيث لا معنى له بدونها، ولا قيمة لأيّة سعادةٍ بعيداً عنها.. وهذا هو الذي يعمّق في الإنسان إحساسه بإنسانيّته

في ما يعنيه الاعتراف بالجميل من المعنى الإنساني، وذلك هو الذي يجسّد انفعاله بألطاف اللَّه عليه. وكما هو الذكر في علاقته بمصلحة الإنسان في الداخل، كذلك الشكر في علاقته باللَّه في امتداد النعم عليه وزيادة فُرصِها في حياته، وهذا في مقابل الكُفران والجحود ونكران الجميل في زوال النعمة عنه وتحوّلها إلى عذابٍ شديد، وهذا ما عبّر اللَّه سبحانه بقوله في دعوته الإنسان للشكر وتحذيره من الكفر بالنعمة: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥٢).

وقوله تعالى:

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (ابراهيم: ٧).

هكذا كانت دعوة اللَّه للإنسان إلى الذكر، ودعوته إلى الشكر، وسيلةً من وسائل انفتاحه على ربّه، ليبقى ذكره في وجدانه، حيث يشرق اللَّه في كلِّ فكره وشعوره ليمتدَّ حضوره عنده في مواقع المسؤوليّة في حياته، ولينطلق شكره له ليعمّق في ذاته الإحساس بارتباط كلِّ حياته بربّه، من خلال علاقة النعم الإلهيّة بحياته في وعيٍ لحاجته المطلقة إلى اللَّه، وشعور بتلبية اللَّه له في ذلك كلّه.

* * *

مميّزات الدعاء

ثمَّ كان الدعاء الذي دعوتنا إليه يا ربّ الذي هو المظهر الحيّ للتواصل الدائم بيننا - نحن عبادك - وبينك، فهو الذي يمثّل النجوى التي تنطلق من عمق الشعور الحيّ في قلوبنا لنتحدّث معك من موقع الحاجة إليك والرغبة في الحصول على لفتةٍ من كرمك ونظرةٍ من رحمتك، لأنّك سرّ وجودنا ومعنى الامتداد في مسيرة هذا الوجود، وهو الذي يعبّر عن الاعتراف

بألوهيتك في خطّ عبوديتنا لك، على أساس المضمون الإيمانيّ الذي تتحرّك فيه كلّ مفردات العقيدة والحياة في تعداد متنوّع الأبعاد والأساليب في روح عباديّة تعبيريّةٍ عن كلّ ما يفكّر به الإنسان ويُحسّه ليعرضه أمام اللَّه، حيث يمثّل ذلك اعترافاً وإقراراً وإخلاصاً بما يعتقد أنّه الحقيقة الخاضعة لكلمات اللَّه ورسالاته، حيث تتميّز عبادة الدعاء عن أيّ عبادة أخرى في تنويع الأفكار والأوضاع، فلا تجد هناك تشريعاً محدّداً في الكيفيّة والكميّة، فللإنسان أن يدعو ربّه وهو قائمٌ أو قاعدٌ أو مستلقٍ على ظهره أو راكعٌ أو ساجدٌ أو واقفٌ أو سائرٌ، ولا توجد كلمات محدّدة لما يقوله في الدعاء، ولا لغات معينة، بل يمكنه الدعاء بأية لغة وأيّة كلمة في أيّ مضمونٍ روحيّ أو شعوري أو فكري مما يريد أن يقدّمه الإنسان بين يدي اللَّه.. وبهذا كان الدعاء عبادةً متحرّكة على أكثر من صعيد، ومنفتحة على كلّ إنسان بحيث ينطلق فيها الإنسان بشكل عفويّ عند حدوث أيّة مشكلة أو طروء أيّة حاجة لا يرى فيها لقدرته مجالاً لحلّ المشكلة أو لقضاء الحاجة فيلجأ إلى أن يَرفعها للَّه.

وهو الذي ينمّي في روح الإنسان الصلة الروحيّة باللَّه حيث يشعر بأنَّ اللَّه قريب منه ومن آلامه وآماله ومشاكله وحاجاته، ليفتح عليه أبواب رحمته، فيخفّف عنه ما ثَقُل عليه من ذلك، وليقضي له ما صَعُب منها، فيجد حاجته عند ربّه بما لا يجدها عند غيره، وهذا هو ما عبّرت عنه الآية الكريمة:

﴿فإنِّي قَريبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤمِنُوا بي لَعَلَّهُم يَرْشُدُون﴾ (البقرة: ١٨٦).

ويتصاعد الاهتمام بهذه العبادة الدُعائيّة حيث تمثّل الدعوة الحاسمة التي تجعل من الإقبال عليها مظهراً للعبادة الخالصة المنفتحة على معنى

عبوديّة الإنسان للَّه، كما تجعل من الابتعاد عنها مظهراً من مظاهر الاستكبار عن عبادة اللَّه الذي يؤدّي إلى دخول جهنّم، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ادْعُوني أسْتَجبْ لكُم إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين﴾ (غافر: ٦٠).

وهكذا عاش الناس الذِكرَ والشكرَ والعبادةَ من خلال الإحساس بِمَنِّك، والانفتاح على فضلك، والخضوع لأمرك، فكان ذلك سبباً للوصول إلى مواقع رضاك من خلال مواقع طاعتك.. في ما يقودهم ذلك إلى رحاب جنّتك.. وهذا هو الغاية كلُّ الغاية في حركة السعادة الإنسانيّة التي يتطلّع إليها المؤمنون، وينطلق نحوها المخلصون.

فَلَكَ الحَمْدُ مَا وُجِدَ في حَمْدِكَ مَذْهَبٌ وَمَا بَقِيَ لِلْحَمْدِ لَفْظٌ تُحْمَدُ بِهِ وَمَعْنىً يَنْصَرِفُ إليْهِ، يَا مَنْ تَحَمَّدَ إلَى عِبَادِهِ بِالإحْسَانِ والفَضْلِ وَغَمَرَهُمْ بِالمَنِّ وَالطَّوْل، مَا أفْشَى فِينَا نِعْمَتَكَ وَأسْبَغَ عَلَيْنَا مِنَّتَكَ وَأخَصَّنا بِبِرِّكَ، هَدَيْتَنَا لِدِينِكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَ ومِلَّتَكَ الَّتِي ارْتَضَيْتَ وَسَبِيلَكَ الَّذِي سَهَّلْتَ، وَبَصَّرْتَنَا الزُّلْفَةَ لَدَيْكَ وَالوُصُولَ إلى كَرَامَتِكَ.

العجز عن بلوغ الحمد

كيف أبلغ - يا ربّ - آفاقَ حمدك، وأنا الإنسان الذي أعيش في زاوية ضيّقة من زوايا الجهل وحدود المادّة.

وهل أنا إلاّ عينٌ تُبصر بعضَ مظاهر عظمتك، وأذنٌ تسمع بعض

أصوات مخلوقاتك، ويدٌ تشعر مواقع النعم في ما تلمسه من مجالات نعمك... فكيف أنطلق إلى ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَت ولا خَطَرَ على قلب بشر، ولا يلمسه حسّ في ما ينفتح عليه غيب العظمة في قدسك وسرّ الإبداع في ألوهيّتك، فكيف أبلغ ما أريده في عمق إخلاصي من التعبير عن حمدك، وأنا لا أعرف إلاّ القليل القليل منه.

لذلك فلن أدخل في التفاصيل، لأنّي لا أعرف كُنْهَ تلك التفاصيل، ولكنّي أحمدك ما وُجِد في حمدك مذهب ممّا أستطيع الوصول إليه وممّا لا أستطيع، كما أنِّي أستغرق في كلِّ كلمات الحمد حتّى لا تبقى هناك كلمة لا يتحرّك بها عقلي وقلبي مما قد لا يبلغه لساني، وأنطلق مع كلِّ معانيه حتى لا يبقى هناك معنىً يطلّ على حمدك إلاّ عشتُ فيه وانطلقتُ معه ممّا أُدركه وممّا لا أدركه.

لقد تحمّدتَ إلينا ـ يا ربّ ـ بإحسانك وفضلك الذي شمل كلَّ حياتنا في كلِّ ما نحتاجه وما ننعم به، وغمرتنا بمنِّك وكرمك حتى أغرقتنا بالسعادة من خلال ذلك. إنَّنا نلتفت إلى كلِّ جوانب وجودنا المتحرّك في إرادتك، فنجد نعمتك شاملةً لكلِّ شيء من أمورنا، فليس هناك أمرٌ لا أثر فيه لنعمتك المادّيّة أو الروحيّة، ونكتشف منَّتك علينا سابغةً في كلِّ أوضاعنا، فما من وضعٍ لا ينطق بمنّتك في عملية امتنانٍ تهزّ الكيان كلَّه، ونلتقي ببرّك الذي اختصصتنا به، ففي كلّ زاوية من زوايا حياتنا غرسةٌ للبرّ الإلهي الذي يمتدّ حتّى يشمل المواقع كلَّها.

أيّ إحسانٍ وفضل ـ يا ربّ ـ أعظم من إحسانك وتفضّلك علينا بهدايتنا لدينك الذي اخترته لعبادك نهجاً للسعادة في الدنيا والآخرة، وأُفقاً رحباً نطلّ من خلاله على آفاق إرادتك في ما تريد لعبادك أن يطيعوك فيه ممّا فيه الحصول على مصالحهم في ما يفعلونه،

والابتعاد عن مفاسدهم في ما يتركونه.. وذلك هو عنوان ملّتك التي ارتضيتها من خلال تجسيدها لمواقع رضاك وسبيلك الذي خَطّطت لنا لنصل من خلاله إلى كرامتك في القرب إليك والوصول إلى رحمتك ومغفرتك.

* * *

هذا هو الجوّ الذي انطلق فيه الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) ليقف أمام وداع شهر رمضان، من خلال وعي الإنسان لموقعه من ربّه وموقع ربّه منه، في ألطافه ونعمه وإحسانه وعظمته ورحمته ومغفرته وهدايته، ممّا يجعل شهر رمضان موقعاً من مواقع اللطف في رعاية اللّه للإنسان، وحركةً في اتجاه الوصول إليه من أجل الحصول على الدرجة العليا في محبّته ورضوانه.

وهذا هو الذي يَخْرُج بشهر رمضان وغيره من مواقيت العبادة والدعاء، عن الخطّ التقليديّ الذي قد يتحوّل فيه الموعد الزمنيّ العباديّ إلى تقليد ميت يمرّ به الناس بشكلٍ عاديّ لا يوحي بأيّ اهتمام، ولا يحمل أيّة حرارة في منطقة الفكر والشعور، لأنّ امتداد التشريع في مدى الزمن قد يجعل المسألة في دائرة الجمود التاريخيّ الذي يتجمّد كلّ شيء في داخله. إنَّ القضية المطروحة في التربيّة الروحيّة الإسلاميّة هي أن يكون اللّه هو العمق في كلّ شيء في الحسّ الشعوري للإنسان بحيث يراه في كلّ قولٍ من أقواله وفي كلّ فعلٍ من أفعاله، وفي كلّ موقع من مواقع الزمن في حركة حياته، سواءٌ كان يحمل عنواناً للفكرة أو موقعاً للعبادة أو كان لا يحمل شيئاً من ذلك، وهذا هو الذي يعطي الزمن حيويّته وحرارته، وللعبادة معناها وحركتها في الفكر وفي الحياة.

اللَّهُمَّ وَأنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَايَا تِلْكَ الوَظَائِفِ وَخَصَائِصِ تِلْكَ الفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، وَتَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الأَزْمِنَةِ والدُّهُورِ، وآثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْزَلْتَ فِيهِ مِنَ القُرآنِ وَالنُّورِ، وَضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الإيمانِ، وَفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ، وَرَغَّبْتَ فِيهِ مِنَ القِيَامِ، وَأَحْلَلْتَ فِيهِ مِنْ لَيْلَةِ القَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيرٌ مِنْ أَلفِ شَهْرٍ.

خصوصيّة الزمن في شهر رمضان

يا ربّ، إنّك خلقتَ الزمن كلَّه، فليس زمنٌ أولى بك من زمن، تماماً كما خلقت كلَّ شيء في الوجود، فليس هناك شيءٌ ـ في ذاته ـ أقرب إليك من شيء... ولكنَّك جعلت لشهر رمضان خصوصيةً من بين الشهور، انطلاقاً من إرادتك وحكمتك عندما أعطيت معناه شيئاً من معنى وحيك، عندما أنزلت فيه القرآن الذي هو النور المعنويّ الذي يدخل إلى عروق الزمن فيمنحه نوراً وحياةً وخيراً وبركةً، وفتحت فيه أكثر من نافذةٍ للإيمان، وحشدت فيه الكثير الكثير من مواقع رضاك في ما أردت لعبادك أن يطيعوك فيه، وذلك من خلال فريضة الصيام الذي يفتح في الجسد أكثر من موقع للروح، ومن خلال القيام الذي يطلّ بالروح على أكثر من معنى للحياة المنفتحة على اللَّه.. ثم كانت الكرامة الكبرى لهذا الشهر عندما اختصرتَ الألف شهر فجعلتها في ليلة وجعلت حجم هذه الليلة ـ ليلة القدر ـ أكبر من حجم ذلك الزمن الطويل في فضلها وثوابها ونتائجها الروحيّة على مستوى ما يحصل عليه الإنسان من مضمونها

العبـاديّ من خـيـر وثواب وسـعـادة قـد ترفـعـه إلى الدرجـات العليـا في جنّتك.. وبهذا كان الإيحـاء الإلهي بأنَّ القـيمة في معنى الزمن في روحه في سـرّ اللَّه، ليسـت في الكمـيّة، بل هي في النوعيّـة، فـقـد لا تكون الألف شـهرالفارغة من عمق الحركة الروحيّة في مستواها العباديّ ذات قيمة عند اللَّه، وقد تكون الليلة الواحدة في جهدها وسـرّها ذات قيمةٍ كبيرةٍ في حركة الفكر والروح في ما تُنتج من أفكار ومشـاعر وفي ما تنفتح عليه من آفـاق الخـيـر، أو تقـتـرب به من ألطاف اللَّه في الإنسـان، وفي عـمق شـعوره بالحـياة، وفـي معنى الكرامـة التي يُكرم فيـها عـبـاده بالمغفـرة والرحمة والرضـوان.

وهذا هو الفضل الكبير الذي تفضّلت به على عبادك عندما فـتـحتَ لهم في هذا الشـهر كلَّ الأبواب التي تُطلّ عليك، ودعوتهم إلى كلِّ الأعمال التي تقترب من مواقع رضـاك، وهيّأت لهم كلّ مواسم الخير والبركة واللطف والحياة الروحيّة التي تتفايض بالحنان.

ثُمَّ آثَرْتَنَا بِهِ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ، واصْطَفَيْتَنَا بِفَضْلِكَ دُونَ أَهْلِ المِلَلِ، فصُمْنَا بِأمْرِكَ نَهَارَهُ، وَقُمْنَا بِعَوْنِكَ لَيْلَهُ، مُتَعَرِّضِينَ بِصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ لِمَا عَرَّضْتَنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِكَ، وتَسَبَّبْنَا إلَيْهِ مِنْ مَثُوبَتِكَ، أَنْتَ المَلِيءُ بِمَا رُغِبَ فِيهِ إليْكَ، الجَوَادُ بِمَا سُئِلْتَ مِنْ فَضْلِكَ، القَرِيبُ إلى مَنْ حَاوَلَ قُرْبَكَ.

وهكذا كان شهر رمضان في تقديرك وتشريعك وكرمك ولطفك، إذ جعلته عطيّةً وميزةً لهذه الأمة المرحومة في ما أعطيت رسولك من كرامة أمّته، وفي ما فتحت له من نوافذ الحقّ على مواقع الخير.. وهكذا انفتحنا عليك من خلاله، بما هيّأت لنا من موارد الطاعة في ما كلّفتنا به من صيام النهار وفي ما ندبتنا إليه من قيام الليل، مما يرتفع بوعينا الروحيّ وقوّتنا الإراديّة وحركتنا العمليّة إلى آفاق جديدة من رحمتك، وفُرَصٍ متنوّعةٍ من مثوبتك، عندما نتطلّع إليك في رحاب كرمك، فنراك مليئاً بما يرغب الناس فيه إليك من رضوانك، فأنت الذي لا تضيق خزائنُك عن طلبات خلقك، كما نتطلّع إليك في عليائك وفي مواقع السموّ التي لا يبلُغها أحدٌ ولا يدركها مخلوق، فنراك قريباً إلى خلقك فتدعوهم إلى مواقع قربك، ليقربوا إليك بأرواحهم وأفكارهم وأعمالهم عندما لا يستطيعون القُربَ إليك بأجسادهم.. وهذا هو الذي يفتح للناس كلَّ السبل ليصلوا إليك في أكثر من موقع وفي أكثر من حركة.

وقد يسأل سائل: كيف يكون شهر رمضان من خصائص هذه الأمّة في ما آثرنا اللَّه به من هذا الحشد من الأعمال والفيوضات الإلهيّة، وفي ما شرّعه اللَّه فيه من الصيام، في الوقت الذي نلاحظ فيه أنَّ اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلّكُم تَتَّقون * أيّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ (البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤).

حيث تدلّ الآية على أنَّ تشريع الصيام ليس شيئاً جديداً في شريعة الإسلام بل هو تشريعٌ كلف اللَّه به الأمم السابقة، وقد نستوحي من الآية وما بعدها، أنَّ الخصوصيّة في الماضي هي الخصوصيّة في الحاضر الإسلامي، ولكنَّ هذه الاستفادة غير واضحة، لأنَّ من الممكن أن يكون

التشبيه بلحاظ تشريع الصوم، لا بلحاظ خصوصيّة الزمان الذي شُرِّع فيه الصوم، ممّا لا يتنافى مع الفكرة التي يوحي بها الدعاء من اختصاص الأمة بهذا الشهر، فإنَّ الحديث عن شهر رمضان في الآية التالية ليس تابعاً لمجموع المضمون الذي جاءت به الآية المذكورة، بل هو بيانٌ للزمان الذي يحتوي الأيام المعدودات في شريعة الأمة الإسلامية، واللَّه العالم.

وَقَدْ أقَامَ فينَا هَذَا الشَّهْرُ مَقَامَ حَمْد، وَصَحِبنَا صُحْبَةَ مَبْرُور، وأرْبَحَنَا أفْضَلَ أرْبَاحِ العَالَمِين، ثُمَّ قَدْ فارَقَنا عِنْدَ تَمَامِ وَقْتِه وانْقِطاعِ مُدَّته وَوَفاءِ عَدَدِه، فَنَحْنُ مُوَدِّعُوهُ وَدَاعَ مَنْ عَزَّ فِرَاقُهُ عَلَيْنَا، وَغَمَّنَا وَأَوْحَشَنَا انْصِرَافُهُ عَنَّا، وَلَزِمَنَا لَهُ الذِّمَامُ المَحْفُوظُ وَالحُرْمَةُ المَرْعِيَّةُ وَالحَقُّ المَقْضِيّ.

صحبة الشهر

عاش هذا الشهر في حياتنا كأفضل ما يعيشه زمنٌ مباركٌ في ما يمنحه من البركة لكلِّ الناس الذين يعيشون فيه من خلال الفرص التي يُوفِّرها لهم في طاعة اللَّه والحصول على مغفرته ورضوانه، ومن خلال الأجواء الروحيّة التي يُثيرها في أجواء الناس الذين يتحرّكون فيه.. وعشنا معه في حَمْدٍ وخيرٍ وسرور، وحصلنا على أفضل الأرباح على مستوى النتائج الدنيويّة والأخرويّة على أساس ما حصلنا عليه من عمقٍ في الروح، وسموٌ في الأخلاق، واستقامةً في الخُطى، وامتدادٍ في الالتزام بأوامر اللَّه ونواهيه، وصوم عن كلِّ ما يُفسد الروحَ ويُسيءُ إلى طهارة الإنسان في نيَّاته وأقواله وأفعاله.

ثمَّ مضى وفَارقَنا، كمرحلةٍ زمنيّةٍ من أفضل مراحلنا، كما يمضي الزمن في النظام الكونيّ الذي يطوي الحياة في حدودها المعيّنة.. وكانت لنا معه صحبةٌ وعلاقةٌ ومحبّة وصداقةٌ وحُرْمَةٌ وحقٌّ، تماماً كما لو كان كائناً حيّاً يفتح معنا أفضل العلاقات، وتبقى لنا - بعد فراقه - أفضلُ الذكريات، لنودّعه بأعذب الكلمات، وأحرّ المشاعر، ليكون التفاعل بيننا وبين شهر اللَّه هذا في المستوى الذي ينطلق فيه من اللَّه ليتّصل بكلّ شيء ينتسب إليه ويرتبط به، أكان زماناً أو مكاناً إنساناً أو كتاباً من كُتُب اللَّه أم شِرعةً من شرائعه أم خطّاً من خطوطه التي أراد لعباده أن يسيروا فيها.

فَنَحْنُ قَائلُونَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللَّهِ الأكْبَر، وَيَا عِيدَ أوْلِيَائِهِ الأعْظَمَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أكْرَمَ مَصْحُوبٍ مِنَ الأوْقَات، وَيَا خَيْرَ شَهْرٍ في الأيَّامِ والسَّاعَات، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ قَرُبَتْ فِيهِ الآمَالُ، وَنُشِرَتْ فِيهِ الأعْمَالُ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ قَرِينٍ جلَّ قَدْرُهُ مَوْجُوداً، وَأفْجَعَ فَقْدُهُ مَفْقُوداً، وَمَرْجُوّاً آلَمَ فِرَاقُه، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ أليفٍ آنسَ مُقْبِلاً فَسَرَّ، وَأوْحَشَ مُنْقَبِضاً فَمَضَّ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مُجَاوِرٍ رَقَّتْ فِيهِ القُلُوبُ وَقَلَّتْ فِيهِ الذُّنُوب.

الألم النفسي لفراق الشهر

وتتلاحق أوصاف هذا الشهر - في أجواء السلام عليه وهي التحيّة له - انطلاقاً من تنوّع مواقعه في شأنه عند اللَّه بالمقارنة مع الشهور الأخرى، وفي مركزه لدى أولياء اللَّه، وفي علاقته بالإنسان في علاقة الصُحبة،

وفي امتداده في الزمن، عندما يتوزّع عنوانه بين الأيام والساعات.. وفي الآمال التي تطلّ فيه على حياة الإنسان.. وفي الدائرة التي تمثّل حدود الزمن فيه حيث تتحرّك الأعمال، وفي السرور بوجوده واللّوعة بفقده تماماً كأي قرينٍ حيّ، أو أليفٍ ينطلق في الشعور في طبيعة معنى الأُلفة في النفس ثم يأتي ليقترب من الإنسان، كما يقترب أيُّ جار من جاره، ليترك تأثيره في عمق القلوب وليطرد عن ساحته كلَّ الذنوب.

فهو شهر اللَّه الأكبر، فكلّ الشهور تصغر في خصائصها أمامه في ما منحه اللَّه من الامتيازات، وهو عيد أوليائه الأعظم الذي يرتفع بهم إلى أعلى الدّرجات، عندما يتحرّكون فيه في أفضل الأعمال، وأقدس الأيام والساعات بما لا يحصل لهم في غيره في هذه الدرجة، وهو الوقت الذي يصحبه الإنسان كأكرم مصحوب في الخير الذي يقدّمه لصاحبه، وخير شهر في الأيام والسّاعات في نتائجه الكبيرة في حركة الحياة في الإنسان.

وهو الشهر الذي أعطى الآمال فرصةً كبيرة لتقرب من الواقع في ما يأمله الإنسان من السموّ الروحي، والارتفاع المعنوي، والدرجات العليا عند اللَّه. وهو الذي نُشِرت فيه الأعمال فانطلقت في عملية إيحاءٍ منفتح على طاعة اللَّه في التعبير عن إخلاص عبده المؤمن له.

وهو القرين الحبيب الذي يشعر الإنسان بالرابطة الوثيقة التي تربطه به، حيث يشعر بجلالة قَدْره عند وجوده لمعرفته بمواقع الجلال في خصائصه ومعانيه، كما يُفْجَع بفقده عند زواله، لما يشعر به من فداحة الخسائر التي تترتّب على افتقاده، وهكذا تتلاحق صفة المرجوّ الذي آلم فراقه، والأليف الذي فتح للقلب نافذةً على الفرح الروحيّ عند إقباله، كما أغلق عنه أبواب الانفتاح عند إدباره، وتحرّك مع عناصر الشخصيّة

الإسـلامـيّة في إيحـاءاته ومـواقـعه وأفكاره، حـتى بعث الرقّة في القلوب، وخفّف من ثِقْل الذنوب على النفس.

السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ نَاصِرٍ أعَانَ عَلَى الشَّيْطَان، وَصَاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإحْسَان، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا أكْثَرَ عُتَقَاء اللَّه فيكَ، وَمَا أسعَدَ مَنْ رَعَى حُرْمَتَكَ بِكَ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أطْوَلَكَ عَلَى المُجْرِمينَ وَأهْيَبَكَ في صُدُورِ المُؤْمِنِين، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ لا تُنَافِسُهُ الأيَّام، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ شَهْرٍ هُوَ مِنْ كُلِّ أمْرٍ سلام، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ كَرِيهِ المُصَاحَبَةِ وَلا ذَمِيمِ المُلابَسَة.

ألطاف اللَّه

للتشريع الإلهي دورُه الكبير في إعطاء الزمن معنىً روحيّاً إيحائيّاً، حيث يتحوّل إلى عنصر من عناصر التأثير الإيجابي على النفس التي تعيش في ساحة الصراع بين خَطّ اللَّه وخطّ الشيطان، لمصلحة الالتزام بالإيمان والتقوى في خطٍّ طاعة اللَّه والإخلاص له، لأنّ الخصوصيّة المعنويّة التي يحصل عليها الشهر المبارك في مفردات التشريع الواجبة والمستحبة، تخلق جوّاً من الاهتمام والقداسة التي تنفذ إلى مشاعر الإنسان الذي يتحرّك في داخله بشكل لا شعوريّ، بحيث يتأثّر به حتى الذين لا يلتزمون بالتزاماته في نطاق الجوّ العام، ومن هنا نفهم كيف يتحوّل هذا الشهر إلى ناصرٍ أعان على الشيطان، وصاحبٍ سَهَّل سُبُلَ الإحسان، لأنَّ الضغوط الروحيّة على نوازع الشرّ تساهم في منع الإنسان من الاستسلام لخطوات الشيطان

وحبائله بطريقة بالغة التأثير، كما تدفع النفس إلى السير في خط الإحسان الفكريّ والعمليّ في ما يحبه اللّه ويرضاه.

وقد ورد في الحديث عن النبي (ص): «**ألا وقد وكّل اللّه بكلّ شيطانٍ مَرِيد سَبعةَ أملاك، فليس بمحلول حتى ينقضي شهرُكُم هذا**»[٣].

ثم كان من ألطاف اللّه في هذا الشهر، أنّ اللّه يعتق الكثير من المذنبين من النار، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق (ع): «**إذا كان أوّل ليلةٍ من شهر رمضان، غفر اللّه لمن شاء من الخلق، فإذا كان الليلة التي تليها ضاعف كلّ ما أعتق، وهكذا، فإذا كان آخر ليلةٍ ضاعف فيها كلّ ما أعتق**»[٤].

وهذا هو الذي يفتح للمذنبين باب الأمل الكبير في المغفرة، حتى في الحالات الشديدة التي أسرفوا فيها على أنفسهم وتوغّلوا كثيراً في دروب المعصية، فيرجعون إلى اللّه ليؤكّدوا رعايتهم لحرمة اللّه في هذا الشهر بذهنيّة روحيّة جديدة، يتخلّصون فيها من كلّ أثقال الذنوب وأغلالها، ليعيشوا السعادة الداخليّة في كيانهم، في عمليّة تجدّد روحيّ وعمليّ، ليكونوا من أسعد الناس في ذلك على مستوى النتائج الكبيرة في انطلاق الذات وحركة المصير.

وهكذا يساهم هذا الشهر في إيحاءاته وأجوائه في محو الذنوب بالتوبة، وستر العيوب بالتمرّد على الانحراف في خط التغيير.

ومن خلال طبيعة الدور الذي أُريد لهذا الشهر أن يحقّقه في التزاماته التي تتجاوز العنصر الماديّ في الصوم الجسديّ إلى الصوم الروحيّ والأخلاقيّ، فإنّ المؤمنين يشعرون بسهولة الحركة فيه من خلال القرار المنطلق من الإرادة

---

(٣) البحار، ج: ٩٧، باب: ٢٦٦، ص: ١٣٠، رواية: ٧.

(٤) رياض السالكين، ج: ٦، ص: ١٦٤.

الإيمانيّة بالالتزام بأوامر اللّه ونواهيه، كما أنّ المجرمين يشعرون بثقله وطُولِه، لأنّه يخلق في داخلهم شعوراً بالعقدة المستعصية لابتعادهم عن الأجواء العامّة فيه في مجتمع الإيمان، فيعيشون فيه الإحساس بالعيون التي تحدّق بهم بالاستنكار، وبالمشاعر التي يتصاعد فيها التوتّر على أساس ما يقومون به من انحرافات في هذا الشهر، ممّا يجعلهم يفكّرون في أوضاعهم كما يفكّر السجين في شهوره بطول مدّة السجن حتى لو كانت قصيرة.

وفي هذا الجوّ الروحيّ، يقف هذا الشهر في الموقع الذي لا تستطيع الأيام الأخرى أن تدخل معه في منافسة في القيمة والنتائج، لأنّها لا تحمل الكثير ممّا يحمله من خصائص وامتيازات، ولا سيّما في روحيّة السلام الذي يسري إلى كلِّ أمر فيه، ممّا يخلق في الحياة جوّاً رائعاً من الانفتاح على كلِّ معاني الخير والابتعاد عن كلِّ معاني الشرّ.. وهكذا تكون صُحْبَتُه لكلّ الذين يصاحبونه طيّبةً محبَّبة، كما يكون الاندماج فيه مفتوحاً على كلِّ أوضاع السرور.

السَّلامُ عَلَيكَ كَمَا وَفَدْتَ عَلَيْنَا بِالبَرَكَات وَغَسَلْتَ عَنَّا دَنَسَ الخَطِيئات، السَّلامُ عَلَيْكَ غَيْرَ مُوَدَّعٍ بَرَماً وَلا مَتْرُوكٍ صِيَامُهُ سَأماً، السَّلامُ عَلَيْكَ مِنْ مَطْلُوبٍ قَبْلَ وَقْتِهِ وَمَحْزُونٍ عَلَيْهِ قَبْلَ فَوْتِهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ كَمْ مِنْ سُوءٍ صُرِفَ بِكَ عَنَّا وَكَمْ مِنْ خَيْرٍ أُفِيضَ بِكَ عَلَيْنَا، السَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى لَيْلَةِ القَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، السَّلامُ عَلَيْكَ مَا كَانَ أَحْرَصَنَا بِالأَمْسِ عَلَيْكَ وَأَشَدَّ شَوْقَنَا غَداً إِلَيْك، السَّلامُ عَلَيْكَ وعَلَى فَضْلِكَ الَّذِي حُرِمْنَاهُ وَعَلَى مَاضٍ مِنْ بَرَكَاتِكَ سُلِبْنَاهُ.

الشعور بالحرمان من الفضل

وهنا تأتي كلمات الوداع في المشاعر الحزينة في اللحظات الحاسمة التي يبتعد فيها الإنسان المؤمن عن أجواء هذا الشهر بالانفصال عن أيامه.. وبذلك يتحرّك الشعور ليتحدّث مع هذا الشهر في كلّ ما كان يعيشه المؤمنون معه، أو يحصلون فيه من نتائج السعادة في الدنيا والآخرة.

فقد جاءنا بالبركات التي ملأت حياتنا، وغَسَل عنا قذارة الخطايا حتى طَهُرت أرواحنا، لذلك فنحن نشعر ببركته وطهارته، فلا يكون وداعنا له وداع الضجر الذي يشعر به الناس في حالة الجوّ الثقيل الذي يُطبق عليهم، كما أنَّنا لن نترك صيامه من خلال الملل، لأنَّنا كنا نحبه وننفتح عليه في مواقع القرب من اللَّه، ممّا يجعلنا نطلبه قبل وقته، ونحزن عليه قبل فوته، ليصرف عنّا الكثير من السوء، ويفيض علينا الكثير من الخير، ولننفتح فيه على اللَّه في ليلة القدر التي تختصر الزمن في ساعاتها حتى تكون في حجم ألف شهر في نتائجها الكبيرة.. وهذا هو الذي جعلنا نحرص عليه في داخله، ونشتاق إليه في المستقبل، ونشعر بالحرمان من فضله ومن بركاته، لنفكّر في تعويض ذلك الحرمان في شهر جديد وعمل جديد.

اللَّهُمَّ إنَّا أهلُ هذا الشَهْرِ الَّذي شَرَّفْتَنَا بِهِ وَوَفَّقْتَنَا بِمَنِّكَ لَهُ حينَ جَهِلَ الأشْقِيَاءُ وَقْتَهُ وَحُرِمُوا لِشَقَائِهِمْ فَضْلَه، أنْتَ وَلِيُّ مَا آثَرْتَنَا بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَهَدَيْتَنَا لَهُ مِنْ سُنَّتِهِ، وَقَدْ تَوَلَّينَا بِتَوْفِيقِكَ صِيَامَهُ وَقِيَامَهُ عَلَى تَقْصِيرٍ، وَأدَّيْنَا فِيهِ قَلِيلاً مِن كَثِيرٍ، اللَّهُمَّ فَلَكَ الحَمْدُ إقْرَاراً بِالإسَاءَةِ واعْتِرَافاً بِالإضَاعَة، ولَكَ مِنْ قُلُوبِنَا عَقْدُ النَّدَم، وَمِنْ ألْسِنَتِنَا صِدْقُ الاعْتِذَار، فَأجِرْنَا عَلَى مَا أصَابَنَا فِيهِ مِنَ التَّفْرِيطِ أجراً نَسْتَدْرِكُ بِهِ الفَضْلَ المَرغُوبَ فِيه، وَنَعْتَاضُ بِهِ مِنْ أنْوَاعِ الذُّخْرِ المَحْرُوصِ عَلَيْه، وَأوْجِبْ لَنَا عُذْرَكَ عَلَى مَا قَصَّرْنَا فِيهِ مِنْ حَقِّكَ، وَأبْلِغْ بِأعْمَارِنَا مَا بَيْنَ أيْدِينَا مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ المُقْبِلِ، فَإذَا بَلَّغْتَنَاهُ فَأعِنَّا عَلَى تَنَاوُلِ مَا أنْتَ أهْلُهُ مِنَ العِبَادَةِ، وأدِّنَا إلى القِيَامِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَأجْرِ لَنَا مِن صَالِحِ العَمَلِ مَا يَكُونُ دَرْكاً لِحَقِّكَ فِي الشَّهْرَينِ مِنْ شُهُورِ الدُّهُور.

التقصير لا يَجْبُره إلاّ غفران اللّه

وعاد الحديث مع اللّه في صورة تقرير عمّا قام به المؤمنون في هذا الشهر من واجباته ومستحبّاته واستغفارٍ عمّا قصّروا فيه من ذلك، وتطلّعٍ إلى شهر رمضان جديد في استعداد لطاعات جديدة، وقيام كامل شامل بحقّ اللّه فيه.

إنّا أهلُ هذا الشهر ـ يا ربّ ـ فقد عشنا حياتنا في داخله ووعينا كلّ عناوين فضله، وكلّ مواقع الخير فيه، وكلّ عناصر الشرف فيه في ما

يكتسبه الذين يعيشون فيه من ذلك، وكلّ حظوظ التوفيق فيه.. وقد التزمناه بكلّ قوّةٍ وإخلاص ووعي، في الوقت الذي كان هناك فريق من الناس الذين جهلوا معناه فلم يعيشوا روحه، ولم يلتزموا بمسؤوليّته ولم يأخذوا من فضله بما دعوتهم إليه من ذلك، وقد كان صيامنا له فرصةً للتطهّر، كما كان قيامنا فيه فرصة للسموّ إلى درجات القُرب إليك، ولكنّنا لم نبلغ مستوى الكمال في ذلك، فقصّرنا عن الوصول إلى الدرجة العليا من معناه، ولم نبلغ الحجم الذي أردتنا أن نحصل عليه من الأعمال الكثيرة التي حشدتها في مسؤوليّات هذا الشهر.

وها نحن ـ في نهاية المطاف ـ نقف في مواقع حمدك لنؤكِّد معنى العبوديّة لك في وجودنا، لنعترف لك بالإساءة في ما أذنبناه فيه، وبالإضاعة في ما قصّرنا فيه، ولن نستطيع التخلّص من واقع التقصير لأنّك لا تُعْبَدُ حقّ عبادتك، مهما بلغ العباد من ذلك.

فلك منّا الإرادة القويّة والتأكيد الشديد من عمق قلوبنا في ما نستشعره من الندم العميق على ما قصّرنا فيه، ومن حركة ألسنتنا في الاعتذار الصادق الذي ينطلق من صدق القرار في التغيير.

وإذا كان ذلك تعبيراً عن موقف الإيمان الحقّ في ما أردت به عبادك أن يتحسّسوا الندم في قلوبهم والاستغفار في ألسنتهم، فإنَّنا نطلب منك الأجر الجزيل من عطائك وكرمك، لنحصل على التعويض عمّا فاتنا من الأجر في طاعتك، وعلى المغفرة في ما أذنبنا فيه من أعمالنا.

وإذا غاب شهر رمضان عنّا، في هذه الفرصة من العمر، فهيّىء لنا فرصة جديدة في امتداد أعمارنا إلى رمضان جديد الذي نريده شهراً تتضاعف فيه طاقاتنا في حركة الطاعة في حياتنا، وتشتدّ فيه الإرادة للوصول إلى مستوى القيام بحقّك بعونك، وتنفتح فيه خطواتنا على

الدّرب الذي يؤدّي بنا إلى مواقع القُرب منك، حتى نحصل من ذلك على تدارك ما فاتنا من الأعمال في الشهر الماضي وما نبلغه من الأعمال الصالحة في الشهر المقبل.

اللَّهُمَّ وَمَا أَلْمَمْنَا بِهِ مِنْ شَهْرِنَا هَذَا مِنْ لَمَمٍ أو إِثْمٍ أَوْ واقَعْنا فِيهِ مِنْ ذَنْبٍ وَاكْتَسَبْنَا فِيهِ مِنْ خَطِيئَةٍ عَلَى تَعَمُّدٍ مِنَّا أَوْ عَلَى نِسْيَانٍ ظَلَمْنَا فِيهِ أَنْفُسَنَا أَوْ انْتَهَكْنَا فِيهِ حُرْمَةً مِنْ غَيْرِنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ، وَاعْفُ عَنَّا بِعَفْوِكَ، وَلا تَنْصِبْنَا فِيهِ لأَعْيُنِ الشَّامِتِينَ، وَلا تَبْسُطْ عَلَيْنَا فِيهِ أَلْسُنَ الطَّاعِنِينَ، واسْتَعْمِلْنَا بِمَا يَكُونُ حِطَّةً أَوْ كَفَّارَةً لِمَا أَنْكَرْتَ مِنَّا فِيهِ بِرَأْفَتِكَ الَّتِي لا تَنْفَدُ وَفَضْلِكَ الَّذِي لا يَنْقُص.

اللهمَّ استرنا بسترك

وإذا كنّا نعتذر إليك من التقصير في ما سلف منّا في هذا الشهر، فإنّنا نستذكر الآن ما ألممنا به من الآثام والذنوب والخطايا ممّا تعمّدناه أو أخطأنا فيه أو نسينا معه مسؤوليّتنا أمامك في ما يتّصل بنا أو بالآخرين من حُرُماتهم التي انتهكناها في أنفسهم وفي أموالهم وأهاليهم وأعراضهم.. لنشعر أمام ذلك كلّه بالحاجة إلى التخفّف من تلك الأثقال الروحيّة التي تُثقل ضمائرنا ومشاعرنا، وذلك بالابتهال إليك لتغفر لنا ولتعفو عنّا وتستر علينا بسترك.. حتى نحصل على السعادة الروحيّة من فضلك، فلا يشمت بنا الآخرون ممَّن يكيدون لنا من أعداء دينك، ولا يطعن علينا الطاعنون في ما يستغلّونه من أخطائنا تجاهك للتحدّث عنّا بألسنتهم

بما لا يُرضيك، ووفّقنا ـ بعد ذلك ـ للثبات على خطّ الخروج من معصيتك، والاستقامة في الخطّ الذي يؤدّي إلى مواقع رضاك في ما تُسبغه علينا من فضلك وتحنو به على مشاعرنا من لطف رأفتك.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، واجْبُرْ مُصِيبَتَنَا بِشَهْرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي يَوْمِ عِيدِنَا وَفِطْرِنَا، وَاجْعَلْهُ مِنْ خَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا وأجْلَبَهُ لِعَفْوٍ وَأمْحَاهُ لِذَنْبٍ، وَاغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا عَلَنَ.

اللَّهُمَّ اسْلَخْنَا بِانْسِلاخِ هذَا الشَّهْرِ مِنْ خَطَايَانَا، وَأَخْرِجْنَا بِخُرُوجِهِ مِنْ سَيِّئَاتِنَا، واجْعَلْنَا مِنْ أسْعَدِ أهْلِهِ بِهِ وَأجْزَلِهِمْ قِسْماً فِيهِ وَأوْفَرِهِمْ حَظّاً مِنْه.

العيد احتفال القيام بالواجب

وإذا كان فراق الشهر مصيبةً على المؤمنين في ما يفقدونه ـ بغيابه ـ من بركات وألطافٍ ربانيّة، فإنَّ العيد الذي يأتي بعده يمثّل معنى الاحتفال بالقيام بالواجب وبركاته في معنى الرضوان، وصفاء الفرح الروحيّ، وانفتاح الإنسان على ساحة المسؤوليّة الواسعة في مدى الزمن، بعد فترة التدريب على تحمّل الحرمان من موقع الإرادة.. وبهذا كانت تطلّعاتنا ـ يا ربّ ـ إليك أن تَجْبُر مصيبتنا بشهرنا هذا بما تمنحنا من ألطافك، وأن تبارك لنا في يوم عيدنا وفطرنا، بالكثير من فيوضات كرمك، وأن تجعل هذا اليوم أكثر الأيام مَجْلَبةً للعفو، وَمَحْواً للذنب، وأن نعيش فيه روح المغفرة

لذنوبنا كلّها الظاهرة والخَفيّة، حتى نعيش السعادة الإيمانيّة في الدنيا، والطُمأنينة الروحيّة في الآخرة، فلا يبقى لنا ذنب نخشاه.. ولا نجد في نفوسنا أثراً للشقاء، فهناك الربح كلّ الربح، والنعيم كلّ النعيم في ظلال عفوك وغمائم رحمتك.

اللَّهُمَّ وَمَنْ رَعَى هَذا الشَّهْرَ حَقَّ رِعَايَتِه، وَحَفظَ حُرْمَتَهُ وَقَامَ بِحُدُودِهِ حَقَّ قِيَامِهَا، واتَّقَى حَقَّ تُقَاتِهَا، أوْ تَقَرَّبَ إليْكَ بِقُرْبَة أوْجَبَتْ رِضَاكَ لَهُ، (وعطفت رحمتك) عَلَيْه، فَهَبْ لَنَا مِثْلَهُ مِنْ جُودِكَ، وَأعْطِنَا أضْعَافَهُ مِنْ فضْلك، فإنَّ فَضْلَكَ لا يَغِيضُ، وَإنَّ خَزَائِنَكَ لا تَنْقُصُ بَلْ تَفِيضُ، وإنَّ مَعَادِنَ إحْسَانِكَ لا تَفْنَى، وإنَّ عَطَاءَكَ لَلْعَطَاءُ الْمُهَنَّا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحمَّدٍ وَآلِهِ، وَاكْتُبْ لَنَا مِثْلَ أُجُورِ مَنْ صَامَهُ أوْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

عطاء اللَّه لا يخضع لحسابات الزيادة والنقصان

وهناك ـ يا ربّ ـ نموذجٌ من الناس عاشوا الإيمان في قلوبهم وعقولهم، وحفظوا حُرُمات اللَّه في التزاماتهم، ووقفوا عند حدود اللَّه في مسيرتهم.. ولذلك رَعَوْا هذا الشهر في ما يتميّز من الحقّ الإلهيّ في رعايته، وحفظوا حرمته في ما جعله اللَّه له من حرماتٍ في صيامه وقيامه، ووقفوا عند حدوده في حدود الحلال والحرام فيه، واتقوا الذنوب فلم يقتربوا منها من خلال وعيهم لنتائجها السيّئة على مستوى المصير،

وتقرّبوا إليك بكلّ الأقوال والأفعال والعلاقات التي تقرّب العباد إليك في ما تختزنه من مواقع محبّتك وآفاق رضاك.. فرضيت عنهم وأعطيتهم من رحمتك كلّ الحنان والإشفاق، وأجزلت ثوابهم من عطائك الذي جعلته للمتّقين المخلصين.

وإذا كان كلُّ عطائك لهم من موقع الفضل لا من موقع الاستحقاق، لأنَّ عبادك لا يستحقّون عليك شيئاً، فإنَّنا نسألك يا رب أن تهب لنا من خزائنك مثله وأن تضاعف لنا ذلك، لأنَّ مسألة العطاء لديك لا تخضع لحسابات الزيادة والنقصان، لتخشى من نقصان خزائنك إذا زاد عطاؤك، لأنّك تخلق ما تعطي منها كما تخلق ما يبقى فيها، فلا تفنى خزائنك بل تبقى، ولا ينقص فضلك بل يزيد.. وتستمرّ يا رب في عطائك الذي يعيش عبادك في هنائه ورخائه وخيره، ومعنى السعادة الممتدّ في كلّ مواقع الإحسان لديك.

فهل نملك يا ربّ كلمات الشكر التي تُوفِي حقّك، وهل نستطيع أن نبلغ معنى الحمد الذي يتميّز به فضلك؟!

وهل نخشى - أمام كلِّ كرمك الذي لا ينتهي عطاؤه - أن نطلب منك أن تمنحنا أجر من تعبّد لك في صيامه وقيامه إلى يوم القيامة؟!

إنَّنا لا نجد ما يسوّغ لنا ذلك من أعمالنا في ما تثيب به عبادك على أعمالهم الصالحة التي يتقرّبون بها إليك لينالوا ثوابك... ولكنّنا - في طلباتنا - لا ننظر إلى استحقاقنا بل ننظر إلى فضلك العظيم ومَنِّك الجسيم ورحمتك التي لا يبلغ مداها شيء. فاستجبْ لنا ذلك، يا أكرم الأكرمين.

اللَّهُمَّ إنَّا نَتُوبُ إليْكَ في يَوْمِ فِطْرِنَا الَّذِي جَعَلْتَهُ للمُؤمنينَ عيداً وَسُرُوراً، وَلأهْلِ ملَّتِكَ مَجْمَعاً ومُحْتَشَداً، مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ أذْنَبْنَاهُ أو سُوءٍ أسْلَفْنَاهُ أوْ خَاطِرِ شَرٍّ أضْمَرْنَاه، تَوْبَةَ مَنْ لا يَنْطَوِي عَلَى رُجُوعٍ إلَى ذَنْبٍ وَلا يَعُودُ بَعْدَهَا في خطيئَة، تَوْبَةً نَصُوحاً خَلُصَتْ مِنَ الشَّكِّ وَالارْتِيَاب، فتَقبَّلْهَا مِنَّا وَارْضَ عَنَّا وَثَبِّتْنَا عَلَيْهَا.

التوبة هدية العيد إلى اللّه

وهذا يوم الفطر الذي بدأنا به زمناً جديداً نتخفّف فيه من مسؤوليّة الصيام الذي فرضته علينا في هذا الشهر، وانطلقنا من خلاله إلى أجواء العيد في معناه العميق الذي يُوحي إلينا، كمؤمنين ملتزمين، بأنّ طاعة اللّه في أيّ موقع من مواقع حركة الإنسان المؤمن، تمثّل عيداً يحمل في معناه كلَّ أسرار الحيويّة الروحيّة للعيد، لأنّه يحقّق في عمق الروح كلّ معاني الفرح الرّوحي بالانفتاح على اللّه في آفاق الثواب الإلهي.

وأردت ـ يا ربّ ـ أن يعيش المؤمنون السرور كلَّه من خلال اجتماعهم على أساس فَرَحِ الطاعة في عيدهم، ومعنى الأخوّة في إسلامهم، وحركة القوّة القائمة على الشعور بالوحدة في خطٍّ ملّتهم التي شرّعت لهم في وحيك.

ونحن نريد ـ يا ربّ ـ أن نعيش معنى العيد في حياتنا في ما نريد أن نعيشه من معنى الطهارة في أفكارنا ومشاعرنا وأعمالنا، لنقترب قليلاً

قليلاً من طُهر المواقع الإلهيّة التي نقترب من خلالها إليك، وذلك بما فتحته أمامنا من أبواب التوبة التي تؤدّي بنا إلى ساحة رحمتك وآفاق رضاك.

ولذلك، فإنّنا نتوب إليك - في يوم فطرنا هذا - توبةً خالصةً مستقرّةً في الأعماق، خالدةً في العمر، نصوحاً في معناها، من دون شكّ ولا ارتياب، لأنّها تنطلق من إيمان راسخ، وقناعةٍ مطمئنّة، بأنَّ علينا أن نحصل على الاستقامة في دربك المستقيم، فلا ينحرف بنا الشيطان عنه إلى مواقع الشرّ في ضلاله وطغيانه، وأن نقوم بتصحيح الخطأ الذي يُوقعنا فيه الهوى الذي يتحرّك في خطّ الشيطان، فلا نرجع فيه بعد خلاصنا منه.

وها نحن نتوب إليك، لتكون توبتُنا هديةَ العيد إليك - يا ربّ - عندما نقدّم نفوسنا المؤمنة في مواقع الطُهر الروحيّ المنفتح على طُهر القداسة في علياء مجدك.

إنَّنا نتوب إليك من كلّ ذنبٍ أذنبناه، أو سوء أسلفناه في ما مضى من أيام عمرنا من أقوالنا وأعمالنا، أو خاطرٍ من خواطر السوء في فكرٍ منحرف يتحرّك في طريق الشرِّ، أو نيّةٍ سيّئةٍ من نوايا السوء التي تتصل بالفساد في حركة الحياة وفي واقع الناس، حتى تَخْلُص أفكارنا من قذارة الشرّ، وتطهر أجسادنا من رجس الخطيئة، لنقف بين يديك في إيمان خالص وتقوى منفتحة على طاعتك، فتقبّل منّا ذلك، وأَعْطِنَا من واسع رحمتك، وَثبِّتنا عليه لنمتدّ في مواقع رضاك.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَوْفَ عِقَابِ الوَعِيدِ وَشَوْقَ ثَوَابِ المَوْعُودِ، حَتَّى نَجِدَ لَذَّةَ مَا نَدْعُوكَ بِهِ، وَكَآبَةَ مَا نَسْتَجِيرُ بِكَ مِنْهُ، وَاجْعَلْنَا عِنْدَكَ مِنَ التَّوَّابِينَ الَّذِينَ أَوْجَبْتَ لَهُمْ مَحَبَّتَكَ وَقَبِلْتَ مِنْهُمْ مُرَاجَعَةَ طَاعَتِكِ، يَا أَعْدَلَ العَادِلِين.

التوبة في العقل والوجدان

إنَّ التوبة النصوح التي نعمل لها ليست مجرّد فكرة تعيش في عقولنا، ومشروع يتحرّك في قرارنا.. بل نريدها شعوراً يفرض نفسه على مواقع الإحساس في شخصيّاتنا، حتى ينطلق الفكر بحرارةٍ تهزّ الكيان كلّه، لتفرض الموقف على الواقع كلّه وتدفعه إلى الثبات في إيحاءات الشعور، إضافةً إلى القوّة في معادلات العقل، والتوازن في حسابات المستقبل على مستوى النتائج الإيجابيّة المتّصلة بقضايا المصير.

ولكنّنا لا نستطيع بلوغ المنطقة الشعورية المنفتحة على ذلك الجوّ الروحي الداخلي، إلاّ بإعانتك لنا على الاستغراق في معاني العبودية الإنسانيّة الخالصة الخاضعة للألوهيّة الخالقة الرحيمة.

ومن خلال ذلك، فإنّنا نسألك أن تغرس في أعماقنا الخوف العميق من العقوبة التي تنتظر العاصين من عبادك في ما توعّدتهم به، حتى نشعر به كأية حالة من الحالات التي نواجه بها الحاضر والمستقبل في ما يحمله من عناصر الخوف في الواقع، ليكون خوف ما في الآخرة حالةً شعوريّةً متحرّكةً في الروح تماماً كما هو خوف ما في الدنيا. كما نسألك أن تثير في مشاعرنا الشوق الروحيّ إلى الثواب الذي وعدتَ به عبادك المتّقين في

ما جعلته لهم من ثوابك، ليتحوّل ذلك الإحساس، في حالة الخوف من عقاب الوعيد والشوق إلى ثواب الموعود، إلى إحساس باللّذّة في الدعاء في ما نطلبه منك من المغفرة والرضوان، وشعورٍ بالكآبة في ما يطوف بأفكارنا ممّا نستجيرك منه من العقوبة والخسران.

ونتوسّل إليك أن تجعلنا من التّوّابين في التوفيق للتوبة وفي قبولها، لنحصل على محبّتك من خلال ذلك في ما أوجبته للتائبين من المحبة، ولنسعد بقبولك منّا العودة إلى طاعتك من جديد في ما تفتحه لنا من طريق السير إليك.. فإنّك أعدل العادلين في كلّ موازين العدل القائم على أن تعطي عبادك كلّ جزاء المحسنين.

اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأهْلِ دِينِنَا جَمِيعاً، مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ ومَنْ غَبَرَ إلَى يَوْمِ القِيَامَة.

الجميع بحاجة إلى رضاك

وإذا كنّا ـ يا رب ـ نطلب إليك أن تتجاوز عنّا وتغفر لنا ذنوبنا بفضلك، فإنّنا لا نريد ذلك لنا ـ وحدنا ـ ولكنّنا نتذكّر آباءنا وأمهاتنا الذين أردتنا أن نشكرهم على ما أحسنوا به إلينا، كما أردتنا أن نشكرك على إحسانك العميم وفضلك الجسيم، كما نتذكّر كلّ أهل ديننا الذين نرتبط بهم بعلاقة الإيمان بك والالتزام بدينك الذي أرسلت به رسولك، من كلّ هؤلاء الذين طوَاهم الزمن في غياهب الموت، ووفدوا إلى جوارك ليواجهوا حسابهم بين يديك، ولينتظروا مصيرهم في حُكمك العادل ورحمتك الواسعة.

إنّنا نتذكّرهم، ونتذكّر حاجتهم إلى مغفرتك ورضاك بعد أن فقدوا الفرصة في العمل الذي يمكّنهم من تصحيح أوضاعهم في ما اكتسبوه من الذنوب، أو واقعوه من الخطيئة.. فنطلب إليك أن تتجاوز عنهم وتغفر لهم كما تتجاوز عنّا وتغفر لنا.. لنجتمع ـ غداً ـ عندك في ظلال الإيمان الذي هو سرّ الوحدة التي تجمعنا في ساحة دينك، ونلتقي في جنّتك في دار النعيم فنسعد برضاك.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى مَلائِكَتِكَ المُقَرَّبِينَ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى أنْبِيَائِكَ المُرْسَلِينَ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ، وَأفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، تُبَلِّغُنَا بَرَكَتَهَا وَيَنَالُنَا نَفْعُهَا وَيُسْتَجَابُ بِهَا دُعَاؤُنَا، إنَّكَ أكْرَمُ مَنْ رُغِبَ إلَيْهِ، وَأكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْهِ، وَأعْطَى مَنْ سُئِلَ مِنْ فَضْلِهِ، وَأنْتَ عَلَى شَيْءٍ قَدِير.

الالتزام بخطّ الرسول وآله

ويبقى للصلاة على محمّدٍ وآله الذين حملوا رسالته وساروا على منهاجه وانفتحوا على كل أهدافه، معنى الوفاء والالتزام، فيبقى الارتباط بالرسول وآله في خطّ الرسالة، تماماً كما أراد اللّه لنا أن ننفتح على ملائكته المقرّبين في ما أوكل اللّه إليهم من القيام بتنفيذ أوامره الكونيّة، وبالاستغراق في عبادته، وعلى أنبيائه المرسلين الذين تحرّكوا في مسيرة الرسالة الإلهية بكلّ إخلاص ومعاناة.

وللصلاة بركتها التي تنفتح على حياة الإنسان في ما توحي به من

معاني الذكرى للروح الإيمانية والرسالية التي تثيره أسماء كل هؤلاء، فتبعث فينا الإحساس بالإخلاص للّه ولرسالته كما أخلصوا له.. وتتحرّك البركة الروحيّة ليستجاب بها الدعاء ويعود إلى حياتنا نفعها..

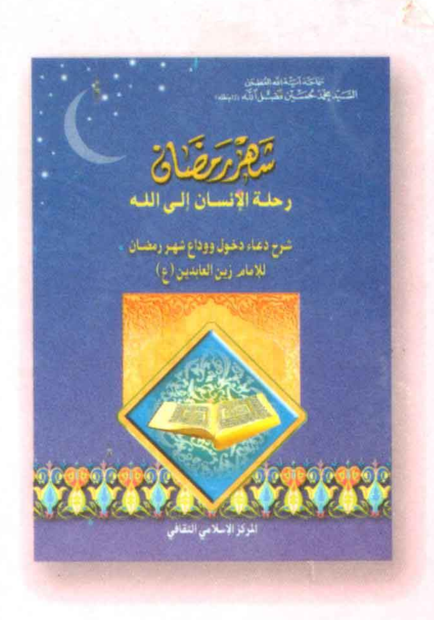
إنّنا نطلب ذلك كلّه وأكثر من ذلك، لأنّك أكرم مَن رَغب إليه الراغبون، وأعطى من سأله السائلون، وأرحم من استرحمه المسترحمون، ولا يضيق عنك شيء من ذلك كلّه لأنّك على كلّ شيء قدير.

* * *

الفهرس

دعاء دخول شهر رمضان

دعاء وداع شهر رمضان







للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
حارة حريك ـ قرب كلية الهندسة
هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ فاكس: ٠١/٤٥٠٧٦٩